سلسلة دراسات قرآنية

(2)

# التوبة والتقوى وتزكية النفس والذكر في القرآن الكريم

أ.د عبد الله الشارف

كلية أصول الدين ، تطوان

# التوبة والتقوى وتزكية النفس والذكر

# في القرآن الكريم

أ.د عبد الله الشارف

الكتاب: التوبة والتقوى وتزكية النفس والذكر في القرآن الكريم
المؤلف: أ.د عبد الله الشارف
الطبعة: الأولى 1446 / 2025 م
الطبع: مطبعة تطوان – تطوان
الهاتف: 34 42 70 539 (212)+
البريد الالكتروني: imp.tetouan@gmail.com
رقم الإيداع القانوني الوطني: 2025MO3502
رقم الإيداع القانوني الدولي: 978-9920-23-945-5

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد؛

فقد تم، بعون الله وتوفيقه، تحرير الكتاب الثاني، من سلسلة "دراسات قرآنية"، الموسوم ب: "التوبة والتقوى وتزكية النفس والذكر في القرآن الكريم". ولا يخفى على القارئ اللبيب ما لهذه الموضوعات الجليلة، من أثر كبير وعميق فيما يخص تربية النفس، وإصلاحها، وتزكيتها، وتذكيرها بعبوديتها لله الواحد الأحد.

فكم من مسلم يصلي ويصوم، وهو غريق في بحر الذنوب والمعاصى، ونفسه لا تحدثه بالتوبة والأوبة، علما بأن التوبة فرض عين على كل مسلم مكلف. بل إن استصحابها من لوازم عبودية العبد. وحسب التوبة شرفا وقيمة؛ أن علق الله الفلاح بها في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً اَيُّهَ ٱلْمُومِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور 31).

ولعل من أسباب عزوف المسلمين المذنبين عن التوبة؛ خُلُوَّ قلوبهم من أثر التقوى وروحها. وكيف يتوب من لا يخشى الله ولا يتقيه؟. فلا سبيل إلى التوبة النصوح، إلا سبيل تقوى الله من خلال العمل بأوامره

واجتناب نواهيه. ولقد أُثِرَ عن الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قوله: "التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل".

ولما كان أمر الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل...، من الأمور الشديدة المستعصية على النفس، أرشدنا الله عز وجل في كتابه العزيز، إلى طريق تربية النفس وتزكيتها، وذلك بقوله سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا (10)" (الشمس). كما أسند الحق سبحانه، إلى الرسل والأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، وظيفة إصلاح النفوس وتزكيتها. قال العليم الحكيم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة 2).

وختمت الكتاب بموضوع الذكر؛ لأن ذكر الله من أعظم العبادات والوسائل الإيمانية التي تُعَبِّد طريق تزكية النفس، وتقرب العبد من خالقه ومولاه عز وجل، وتنعم عليه بطمأنينة القلب وسكينته، وهو الفارق بين الحي والميت، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ، المتفق عليه: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره، مثل الحي والميت". جعلني الله، عز وجل، وإياكم من المكثرين لذكره سبحانه، وحمده والثناء عليه، لعلنا نكون من المفلحين.

## الفصل الأول

# التوبة في القرآن الكريم

التوبة لغة واصطلاحا

آيات التوبة

التوبة في السنة النبوية

أقوال السلف في التوبة

التوبة في القرآن الكريم

التوبة واجبة على الفور وعلى الدوام

استصحاب التوبة

التوبة تجلب الخير والبركات

التوبة تبدل السيئات حسنات

التوبة مقرونة بالعمل الصالح

شروط التوبة

آفات وأضرار الغفلة عن التوبة

فوائد التوبة وثمراتها

نعمة الاستغفار

قبس من قصص التوابين

# التوبة في القرآن الكريم

## التوبة لغة واصطلاحا

"التائب يقال لباذل التوبة ولقابل التوبة، فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده. والتواب العبد الكثير التوبة. وقد يقال ذلك لله تعالى لكثرة قبوله توبة العباد حالا بعد حال.[1]

والتوبة في الاصطلاح الشرعي: "الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة. والتوبة النصوح: ألا يبقي على عمله أثرا من المعصية سرا وجهرا".[2]

## آيات التوبة

وردت ألفاظ التوبة في القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 159)

وقال العزيز الحكيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: 220).

---

1- **المفردات في غريب القرآن**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت 502هـ)

تحقيق؛ صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - 1412 هـ، ص169.

2- **التعريفات**، الجرجانى؛ على بن محمد بن على الزين الشريف الجرجانى (ت 816)، التحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1403هـ-1983م، ص 70.

وقال الحي القيوم: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍۖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماًۖ (17) وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّے تُبْتُ ٱلَٰـنَ وَلاَ ٱلذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ اُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً اَلِيماًۖ (18) ﴾ (النساء 17-18).

وقال السميع البصير: ﴿واللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَّتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيماًۖ ﴾ (النساء 27).

وقال اللطيف الخبير: ﴿ومَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ اِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اِ۬للَّهِۖ وَلَوَ اَنَّهُمُۥٓ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماًۖ ﴾ (النساء 63).

وقال الجواد الكريم: ﴿إِلاَّ ٱلذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُومِنِينَۖ وَسَوْفَ يُوتِ اِ۬للَّهُ ٱلْمُومِنِينَ أَجْراً عَظِيماًۖ ﴾ (النساء 145).

وقال الله سبحانه: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۖ ﴾ (المائدة 41).

وقال الملك الحق المبين: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۖ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌۖ ﴾ (المائدة 76).

وقال التواب الرحيم: ﴿وَالذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۖ ﴾ (الأعراف 153).

وقال البر الرحيم: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (103) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (104) أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (105)﴾ (التوبة 103-105).

وقال عز وجل: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة 113).

وقال الغفور الرحيم: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (118) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (119)﴾ (التوبة 118-119).

وقال الحي القيوم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل 119).

وقال العزيز الحكيم: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ (القصص 67).

وقال اللطيف الخبير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التحريم 8).

## التوبة في السنة النبوية

روى مسلم عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: "يا أيُّها الناسُ تُوبُوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة".[3]

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيدِهِ، لو لم تُذنِبُوا لذَهَبَ اللهُ بكم، ولَجَاءَ بقومٍ يُذنِبون فيستغفِرون اللهَ، فيغْفِر لهم"[4].

وروى البخاري عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "سَيِّدُ الاستغفار أن تقول: اللهُمَّ أنت ربِّي، لا إله إلا أنت، خلقْتَني وأنا عَبْدُكَ، وأنا على عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما استطعْتُ، أعُوذُ بِكَ من شَرِّ ما صَنَعْتُ، أبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عليَّ، وأبُوءُ لَكَ بذَنْبي فاغْفِرْ لي؛ فإنَّه لا يغفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنت"، قال: "ومَنْ قالها من النهار مُوقِنًا بها، فمات من يومِه قبل أن يُمْسي، فهو من أهل الجنة، ومَن قالها من الليل وهو موقِنٌ بها،

---

3- **صحيح مسلم**، مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ثم صورته دار إحياء التراث العربي ببيروت، وغيرها، عام النشر: 1374 هـ - 1955 م، ج4، ص75.

4-**صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص106

فمات قبل أن يُصبِح، فهو من أهل الجنة".[5]

وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: سمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: "قال الله تبارك وتعالى: يا ابنَ آدمَ، إنكَ ما دعوتَني ورجوتَني غفرتُ لكَ على ما كان فيك ولا أُبالي، يا ابن آدم، لو بلَغَتْ ذُنوبُكَ عنانَ السماء، ثمَّ استغفرتَني غفَرْتُ لَكَ ولا أُبالي، يا ابن آدَمَ، إنَّكَ لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتَني لا تُشرِكُ بي شيئًا، لأتيتُكَ بقُرابها مَغْفِرةً".[6]

وروى الترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ جَلَسَ في مجلِسٍ، فكثُر فيه لَغَطُه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وبحمدِكَ، أشهدُ أن لا إله إلا أنت، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ، إلَّا غَفَرَ له ما كان في مجلِسِه ذلك"[7].

وروى مسلم عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ، قال: "إن الله عز وجل يبسُط يدَه بالليل؛ ليتُوبَ مُسيءُ النهار، ويبسُط يدَهُ بالنهار؛ ليتُوبَ مُسيءُ الليل، حتى تطلُعَ الشمسُ من مَغْرِبِها"[8].

وروى مسلم عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: "للهُ أشَدُّ

---

5- **صحيح البخاري**، البخاري؛ أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفى، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، 1311 هـ، بأمر السلطان عبد الحميد الثانى. ج8، ص67.

6- **سنن الترمذى**، الترمذي؛ محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت 279)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض المدرس فى الأزهر الشريف، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصرالطبعة: الثانية، 1495 هـ - 1975 م، ج5، ص548.

7- **سنن الترمذي، ج5، ص194.**

8- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص113.

فَرَحًا بتوبة عبده حين يتُوبُ إليه مِنْ أحدِكم كان على راحلته بأرض فلاةٍ، فانفلتَتْ منه، وعليها طعامُه وشرابُه، فأَيِسَ منها، فأتى شجرةً فاضطجع في ظِلِّها، قد أيِسَ من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخِطامِها، ثم قال من شدَّة الفَرَح: اللهُمَّ أنت عَبْدي وأنا ربُّكَ، أخطأ من شدَّة الفَرَح"[9].

وروى الترمذي عن أنس أن النبي ﷺ قال: "كُلُّ ابن آدَمَ خَطَّاءٌ، وخيرُ الخطائين التَّوَّابون"[10].

وروى الترمذي عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال:"إن اللهَ يقبَلُ توبة العَبْدِ ما لم يُغَرْغِرْ"[11].

## بعض أقوال السلف في التوبة

روى ابن جرير الطبري عن النعمان بن بشير، قال: سُئِل عمر عن التوبة النَّصُوح، قال: "التوبة النصوح: أن يتوبَ الرجلُ من العمل السيِّئ، ثم لا يعود إليه أبدًا".[12]

وسُئِل الحسنُ البصري عن التوبة النَّصُوح، فقال: "نَدَمٌ بالقلب، واستغفارٌ باللِّسان، وتركٌ بالجوارح، وإضمارٌ ألَّا يعود"[13].

9- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص104.

10- **سنن الترمذي**، المرجع السابق، ج4، ص559

11- **سنن الترمذى**، ج5، ص547.

12- **جامع البيان عن تأويل آى القرآن، الطبري**؛ أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (ت 310)، دار التربية والتراث - مكة المكرمة، د.ت، ج23، ص193.

13- **زاد المسير في علم التفسير**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي

وقال الفضيل بن عياض: "التوبة النَّصُوح: أن يكون الذَّنْبُ بين عينيه، فلا يزال كأنه ينظُر إليه"[14].

وقال أبو بكر الدَّقَّاق المصري: "التوبة النصوح: هي ردُّ المظالم، واستحلال الخُصُوم، وإدمان الطاعات"[15]..

قال شقيق البلخي: "التوبة النَّصُوح: أن يُكثِر صاحبُها لنفسِه الملامةَ، ولا ينفَكُّ من الندامة؛ لينجوَ من آفاتها بالسلامة"[16].

## التوبة في القرآن الكريم

إن آيات التوبة في القرآن الكريم، تتضمن دروسا وفوائد عظيمة، وعبرا مفيدة وحكيمة، منها؛ أن التوبة أمر ديني واجب، وفرض عين على الفور، وأن استصحابها لازم باستمرار ومدى الحياة، وأنها تجلب الخير والبركات، وأن التوبة تمحو السيئات وتجُبُّ ما قبلها، وأنها سبب الفلاح، وأنها مقرونة بالعمل الصالح، وأن الاستغفار من أعظم نعم الله سبحانه على عبده، إلى غيرها من الفوائد والمعاني الجليلة. نسأل الله عز وجل أن يجعلنا، والمسلمين أجمعين، من الذين حبسوا أنفسهم على التوبة والاستغفار، مع استحضار الخشية والذلة والافتقار.

---

(ت 597هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط1،1422 هـ، ج4، ص311.

14- **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبى، تحقيق: أحمد البردونى وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، 1384 هـ - 1964 م، ج18، ص198.

15- **الجامع لأحكام القرآن**، ج18، ص198.

16- **الجامع لأحكام القرآن**، ج18، ص198.

## 1- التوبة واجبة فورا وعلى الدوام

لقد أمر الله سبحانه عباده بالتوبة، كما صرحت بذلك آيات كثيرة، والأمر هنا يفيد الوجوب. فالتوبة واجبة وفرض عين على كل مسلم ومسلمة. ونبينا ﷺ أمر المسلمين بها، وحضهم عليها، وعلى الاستغفار الدائم والمتواصل؛ روى مسلم عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: "يا أَيُّها النَاسُ تُوبُوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة".[17]

ثم إن التوبة واجبة على الفور لا على التراخي، كما يظن كثير من المذنبين الغافلين، الذين غرقوا في بحر التسويف، ولم يتوبوا إلى الله، حتى حال الموت بينهم وبين الإنابة والرجوع الى خالقهم. ولما كانت حياة العبد لا تخلو من المعاصي والذنوب، لزمه الاستغفار في كل وقت وحين. فقد يذنب العبد ويقع في المعصية وهو لا يشعر، كما قد ينسيه الشيطان ويلبس عليه، فيهمل أمر التوبة، أو يحتقر بعض ذنوبه ولا يتوب منها. وإذا كان نبينا صلوات الله وسلامه عليه، وهو المعصوم، يستغفر الله ويتوب إليه مائة مرة في اليوم كما ورد في الحديث، فكيف نهمل هذا الواجب أو نغفل عنه، ونحن الضعفاء الخطاؤون المذنبون، والمُعَرَّضون لمكائد وحبائل الشيطان ووساوسه.

ولقد دّلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتضافرة على أن توبة العبد المسلم من كل ذنب اقترفه، فرضٌ على الفور. وذلك من تمام عبوديته وخضوعه لله وحيائه منه سبحانه.

---

17- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص75.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (17) وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلَٰٔنَ وَلاَ ٱلذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (18) ﴾ (النساء: 17، 18).

وهكذا أجمع أهل العلم على أن التوبة واجبة على الفور لا على التراخي. قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم: "واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنها واجبة على الفور لايجوز تأخيرها، سواء كانت المعصية صغيرة أوكبيرة "[18].

## 2- استصحاب التوبة

وفي سياق التوبة واستصحابها، يقول العلامه الفقيه محمد بن قيم الجوزية رحمه الله: "ومنزل التوبة أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ ٱلْمُومِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن

---

[18]- **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**؛ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت 676هـ).

الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، 1392. ج17، ص59.

يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي، إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم"[19].

وقال ابن قدامة المقدسي: "والتوبة واجبة على الدوام، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، لو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولا يسلم أحد من هذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، وأما أصل ذلك، فلا بد منه".[20]

إن قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ ٱلْمُومِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يفيد أن الخطاب موجه لكل المؤمنين ولو كانوا من أولياء الله المتقين، مما يعني أن التوبة لا تلزم وتخص المذنبين وحدهم، كما قد يتوهم بعض السدج والغافلين من المسلمين، وإنما تعم سائر المسلمين. وذلك لأن المسلم مهما اجتهد في التقرب إلى الله باتباع الأوامر واجتناب النواهي،

---

19- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين**، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط3. 1416 هـ - 1996م، **ج1 ص 208.**

[20]- **مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ القَاصِدِينْ**؛ نجم الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي مكتَبَةُ دَارِ البَيَانْ، دمشق، 1398هج. 1978م. ص 215.

وأكثر من نوافل الطاعات والقربات، لا يخلو من التقصير. وقد تحمله نفسه، وهو في حال من الغفلة، على الوقوع في صغائر الذنوب، فلا يلقي لها بالا. ناهيك عن الخواطر الباطنية المتعلقة بالعجب، والغرور، والرياء، التي كثيرا ما تعتري الصالحين من المؤمنين وتطوف بهم، بله من دونهم في الإيمان والتقوى. ولذلك أمر الله عباده المؤمنين جميعا بالإكثار من الاستغفار، ولزوم التوبة واستصحابها مدى الحياة. ولنا في رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، القدوة المثلى في تقوى الله وطاعته، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك فإنه سيد المستغفرين والتائبين، حيث كان يستغفر الله ويتوب إليه أكثر من سبعين مرة في اليوم. فأين نحن منه ﷺ، ومن الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم، الموصوفين بالتوابين في الذكر الحكيم.

### 3- التوبة تجلب الخير والبركات

قال الحي القيوم: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ (هود 52).

قال المفسر سيد قطب رحمه الله: "استغفروا ربكم مما أنتم فيه، وتوبوا إليه فابدأوا طريقا جديدا يحقق النية ويترجمها إلى عمل يصدق النية. (...) ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ﴾ .

وكانوا في حاجة إلى المطر يسقون به زروعهم ودوابهم في الصحراء، ويحتفظون به بالخصب الناشئ من هطول الأمطار في تلك البقاع.

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾؛ هذه القوة التي عرفتم بها.. ﴿وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾؛ مرتكبين لجريمة التولي والتكذيب. وننظر في هذا الوعد، وهو يتعلق بإدرار المطر ومضاعفة القوة. وهي أمور تجري فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود، من صنع الله ومشيئته بطبيعة الحال. فما علاقة الاستغفار بها وما علاقة التوبة؟

فأما زيادة القوة فالأمر فيها قريب ميسور، بل واقع مشهود، فإن نظافة القلب والعمل الصالح في الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة. يزيدانهم صحة في الجسم بالاعتدال، والاقتصار على الطيبات من الرزق، وراحة الضمير وهدوء الأعصاب، والاطمئنان إلى الله والثقة برحمته في كل آن؛ ويزيدانهم صحة في المجتمع بسيادة شريعة الله الصالحة التي تطلق الناس أحرارا كراما، لا يدينون لغير الله على قدم المساواة بينهم، أمام قهار واحد تعنو له الجباه.. كما تطلقان طاقات الناس ليعملوا وينتجوا، ويؤدوا تكاليف الخلافة في الأرض؛ غير مشغولين ولا مسخرين بمراسم التأليه للأرباب الأرضية، وإطلاق البخور حولها ودق الطبول، والنفخ فيها ليل نهار لتملأ فراغ الإله الحق في فطرة البشر ! (...).

ولقد تتوافر القوة لمن لا يحكمون شريعة الله في قلوبهم ولا في مجتمعهم، ولكنها قوة إلى حين حتى تنتهي الأمور إلى نهايتها الطبيعية وفق سنة الله، وتتحطم هذه القوة التي لم تستند إلى أساس ركين. إنما استندت إلى جانب واحد من السنن الكونية؛ كالعمل والنظام ووفرة الإنتاج، وهذه وحدها لا تدوم. لأن فساد الحياة الشعورية والاجتماعية

يقضي عليها بعد حين."[21]

تفسير دقيق وعميق في ربطه بين السلوك الإنساني والسنن الطبيعية الثابتة والمطردة، وكيف أن الله عز وجل كثيرا ما يعاقب المشركين والظالمين بحرمانهم من خيرات وبركات السماء والأرض. ثم يدعوهم بعد ذلك على لسان أنبيائه ورسله، إلى التوبة والرجوع إلى الطريق المستقيم، كي ينعم عليهم بتلك الخيرات ويفتح لهم أبواب الرزق والمنح والعطايا، ويكرمهم بالأمن والرخاء ورغد العيش. إن هذه السنن الطبيعية الربانية آية من آيات الله العظيمة التي يسخرها سبحانه في حياة الناس كيف يشاء، ويصرفها تصريفا حكيما، ابتلاء وامتحانا لهم، لعلهم يتفكرون ويتعظون ويعتبرون. قال تعالى وقوله الحق: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام 65).

## 4- التوبة تبدل السيئات حسنات

قال اللطيف الخبير: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان 70). قال المفسر عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "إِلَّا مَنْ تَابَ" عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزما جازما أن لا يعود، "وَآمَنَ" بالله إيمانا صحيحا يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات،"وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا" مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله.

21- **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، 1417 هج-1996م، ط. 25.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانا ومعصيتهم طاعة وتتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة، تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية"[22].

وهذا من كرم الله سبحانه وتعالى وعظيم جوده وعفوه، ومحبته للتائبين؛ إذ يبدل سيئاتهم حسنات. وكفى بالتوبة النصوح ذخرا وقدرا أنها تجب ما قبلها، وتمنح الأمن والسعادة والطمأنينة للتائب الذي انتقل من شقاء المعصية وظلمتها، إلى نعيم التوبة والعمل الصالح. وكم عبر التائبون، لا سيما الذين آمنوا بعد شركهم، عن حلاوة التوبة ونعمة الأوبة. ولعل أخبار الذين يدخلون في الإسلام اليوم من المسيحيين، وهم يصفون أحوالهم النفسية بعد نطقهم بشهادة الإسلام، وقد انسلخوا من الكفر وظلمته، خير دليل على نعمة التوبة والرجوع إلى الله عز وجل.

## 5- التوبة مقرونة بالعمل الصالح

من المقاصد القرآنية الجليلة المرتبطة بالتوبة، كونها مقرونة بالعمل الصالح. فلا تصح توبة العبد إلا بمفارقته للأعمال السيئة وإتيانه للأعمال الصالحة. ولقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة ذكرت فيها

---

22- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**؛ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت 1376هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1420هـ - 2000 م. ص 587.

التوبة مقرونة بالعمل الصالح؛ منها قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ (المائدة 41). وقوله عز وجل: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحاً فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْـٔاً﴾ (مريم 60). وقول الحق سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحاً فَعَسىٰٓ أَنْ يَّكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ (القصص 67).

ومن مظاهر العمل الصالح لدى المسلم التائب إلى الله؛ إصلاحه لنفسه من خلال التحرر من المعاصي والآثام، والتخلص تدريجيا من أهواء وأغلال النفس الأمارة بالسوء، ومن مصائد الشيطان ومكائده. فلا صلاح للعبد دون الانعتاق من أسر النفس المتمردة ومن الشيطان؛ أعدى أعدائه. قال تعالى محذرا عباده من كيد الشيطان وعداوته للإنسان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِے ٱلاَرْضِ حَلَٰلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (البقرة 167).

هذا وإن الإصلاح المرتبط بالأعمال الصالحة هدف عظيم من أهداف الشريعة الإسلامية الغراء، لما يحدثه من آثار طيبة، وثمرات زكية، في حياة المسلم الاجتماعية والنفسية والتربوية، وفي علاقته بربه سبحانه. فلا غرو أن يكون الإصلاح مقصد من مقاصد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل.

إن المسلم التائب إلى الله، حين يقلع عن الذنوب والمعاصي، ويشرع في القيام بالأعمال الصالحة؛ من طاعات وقربات، والسعي في مصالح العباد ونفعهم قدر المستطاع، يكون بذلك ممارسا لأفعال الصلاح

والإصلاح، لأن توبته النصوح صيرته عضوا نافعا لنفسه ولمجتمعه. فبعد أن كان يؤذي نفسه وغيره بفعل المحرمات كشرب الخمر مثلا، أو باعتدائه على أعراض الناس، وسرقة أموالهم، وغير ذلك من أنواع الأذى والفساد الناتج عن اقتراف الذنوب، أصبح عضوا صالحا. وقد يغدو بصلاحه مصلحا، وهو لا يشعر؛ إنها بركات وخيرات دوحة التوبة الصادقة النصوح.

## شروط التوبة

### 1- إخلاص النية لله سبحانه

ينبغي للعبد التائب إلى الله عز وجل، أن يخلص النية لربه حين العزم على التوبة من الذنوب والمعاصي؛ فشارب الخمر الذي حذره الطبيب من خطر معاقرته لها ونصحه باجتنابها، فعمل بنصيحته، لا يعتبر تائبا إلى الله، لأنه لم يخش الله، وإنما توقف عن شرب الخمر خوفا على بدنه وحياته. فإقلاعه عن شرب الخمر لم يحصل بنية التوبة والخوف من الله. قال رسول الله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى".[23]

وهذا العبد الذي لم ينو التوبة بإقلاعه عن شرب الخمر، قد يرجع إلى معاقرتها إذا اطمأن إلى سلامة بدنه، ولم يعد يخش ضررها على صحته. وكذلك العبد الذي توقف عن التجارة في المخدرات أو ممارسة السرقة، أو ما يشبه ذلك خوفا من أن يقع في أيدي الشرطة، لا يعتبر تائبا إلى الله لعدم حصول نية التوبة لديه. وهكذا في جميع الأفعال

23- متفق عليه.

والسلوكات المحرمة شرعا. لكن تصح توبة هؤلاء العصاة إذا امتزج شعورهم بخطر تلك الموبقات بالخوف من الله ووعيده، مما قد يفضي بهم إلى عقد نية التوبة، والإقلاع عن تلك المعاصي المُهلكة.

### 2- الندم

والمقصود بالندم أن يستشعر العبد قبح الذنوب التي اقترفها، وعدم حيائه من خالقه وتجرئه عليه بارتكابها، ويتذكر شناعة وقبح استسلامه للشيطان وبيع نفسه له، واستجابته لدعوته ووسوسته. قال الحق سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ (إبراهيم 24). فإذا اضطرمت في قلب العبد التائب إلى الله، نيران الندم والحسرة، وباتت ذنوبه بين عينيه، ولم يستطع نسيانها، أضحى قاب قوسين أو أدنى من عفو الله ورحمته؛ قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (الشورى 23). وقد أفصح الفقيه العلامة محمد بن قيم الجوزية رحمه الله، عن هذا الحال النفسي المضطرم والمتأجِّج بنيران الندم والأسى والحسرة، بكلام جيد يحسن الاستشهاد به، إذ يقول:

"ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضا: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حب مجرد، وإنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحا ذليلا

خاشعا، كحال عبد جان آبق من سيده، فأخذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدا ولا عنه غناء، ولا منه مهربا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد وما أجدى عائدتها عليه ! وما أعظم جبره بها، وما أقربه بها من سيده ! فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له"[24].

فما أنفع وأجدى هذا الحال النفسي الموصوف بالانكسار والاضطرار والافتقار إلى الله عز وجل "غافر الذنب وقابل التوب"، في تثبيت دعائم التوبة وترسيخها في قلب العبد التائب. وما أكثر الذين يتوبون بألسنتهم وقلوبهم مصرة على الذنوب والمعاصي. فأنى لهم بنور التوبة وضيائها وقلوبهم خالية من الصدق والإخلاص؟

### 3- الإقلاع عن الذنوب

وهذا من الشروط اللازمة؛ إذ لا تصح توبة من لم يضع حدا لعلاقته بذنوبه التي تاب منها. وما دام مباشرا لها ولو قليلا، أو في وقت دون وقت، فإنه غير تائب، وإنما هو مستخف بما حرمه الله. ولن يظفر بحال الإقلاع الصحيح عن الذنب ما لم يقطع الصلة بكل الأسباب المؤدية إلى الوقوع

---

24- **مدارج السالكين**، المرجع السابق، ج1/ 204.

فيه، الأمر الذي يتطلب اللجوء إلى مجاهدة النفس ومراقبتها على الدوام، مع عقد نية جازمة على عدم الرجوع إلى فعل تلك الذنوب واقترافها.

**4- رد الحقوق**

وهو شرط مؤكد ولازم لحصول التوبة وقبول الله سبحانه لها. والحقوق نوعان: حقوق الله عز وجل وحقوق العباد. فحقوق الله تتعلق بأوامره ونواهيه. والعبد الذي عزم على التوبة، والإقلاع عن ذنوبه ومعاصيه، مطالب بمحاسبة نفسه بالطاعات وأوامر الدين كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج. فإن وجد تقصيرا في القيام بها، أو أنه لم يقم بأداء ركن من أركانها، فعليه القضاء. فإن كان مثلا، لا يعلم عدد الأيام، أو الشهور، أو السنوات التي ترك فيها القيام بفريضة الصلاة، فعليه الأخذ بغالب الظن، والاجتهاد مع التحري وقضاء ما عليه، مع الإكثار من النوافل؛ كالسنن الراتبة وقيام الليل. وكذلك يفعل مع الصوم والزكاة. وإذا كان قد أهمل فريضة الحج مع وجود القدرة، فعليه أن يبادر بأدائها قبل أن يحول بينه وبينها مانع من الموانع. وأما المعاصي من الصغائر والكبائر؛ فيلزمه تعيينها وإحصاؤها إن أمكن، ثم العمل على تكفيرها.

أما حقوق العباد؛ فإن التائب إلى الله يتعين عليه ردها إلى أصحابها إن كانوا أحياء، أو إلى ورثتهم في حال موتهم. فإن كان عاجزا على ردها، فعليه أن يستحلها منهم. قال رسول الله ﷺ: "من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه، أو شيء، فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولادرهم. إن كان له عمل صالح، أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات

أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه".[25]

وإذا لم يعثر على أصحاب الحقوق ولا على ورثتهم، فعليه أن يتصدق بها عن أصحابها، بدفعها إلى الفقراء أو مؤسسات خيرية. وأما فيما يخص المظالم الأخلاقية والسلوكية كالغيبة والسخرية، فإن العلماء لم يتفقوا على كيفية التوبة والتحلل منها. فذهب بعضهم الى وجوب إخبار التائب كل الأشخاص الذين استهدفهم بالغيبة، أو الاستهزاء، أو الكذب عليهم، أو ما أشبه ذلك. وقال آخرون يكفي أن يتوب العبد الجاني بينه وبين الله. ولا يتوجب عليه إعلام من اغتابهم أو سخر منهم. بينما اختار علماء آخرون القول الوسط؛ وهو وجوب الإخبار والتحلل منهم، إذا لم يفض ذلك إلى مفسدة، وإلا فلا يخبرهم، ويعقد التوبة بينه وبين خالقه.

قال الإمام النووي، قال العلماء: "التوبة واجبة من كل ذنْبٍ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلَّق بحقِّ آدميٍّ؛ فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يُقلِع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فِعْلِها.

والثالث: أن يعزم ألَّا يعود إليها أبدًا.

فإن فَقَدَ أحدَ الثلاثة لم تصحُّ توبتُه.

وإن كانت المعصية تتعلَّق بآدمي، فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبْرَأ من حَقِّ صاحبِها؛ فإن كانت مالًا أو نحوه ردَّه إليه، وإن كانت حدَّ قَذْفٍ

25- **صحيح البخاري**، المرجع السابق، ج3، 129.

ونحوه مكَّنَه منه أو طَلَبَ عَفْوَه، وإن كانت غِيبةً استحلَّه منها، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضِها صحَّتْ توبتُه عند أهل الحق من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي".[26]

## آفات وأضرار الغفلة عن التوبة

لا شيء يهلك العبد في دنياه وآخرته أعظم من الذنوب والمعاصي، لا سيما إذا كانت من الكبائر. فإذا احتوشت الذنوب العبد، وأحاطت به وتمكنت من قلبه، غدا هدفا وغرضا لمحن وعقوبات قاسية، تلقي به في أودية الهلاك والشقاء، ومن هذه العقوبات الأليمة:

**1- نسيان العبد ربه ونفسه**؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (18) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (19)﴾ (الحشر 18-19). قال المفسر محمد بن قيم الجوزية رحمه الله: " فهؤلاء نسوا نفوسهم لا من جميع الوجوه بل من الوجه الذي به مصالحها وكمالها وسعاداتها، وإن لم ينسوها من الوجه الذي منه شهوتها وحظها وإراداتها فأنساهم مصالح نفوسهم أن يفعلوها ويطلبوها، وعيوبها ونقائصها أن يزيلوها ويجتنبوها، وكمالها الذي خلقت له أن يعرفوه

---

[26]- **رياض الصالحين**؛ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المحقق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1419 هـ/1998 م، باب التوبة، ص33.

ويطلبوه، فهم جاهلون بحقائق أنفسهم من هذه الوجهة، وإن كانوا عالمين بها من وجوه.قوله تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأنْساهم أنْفُسَهُمْ﴾؛عاقبهم على نسيانهم له بأن أنساهم أنفسهم فنسوا مصالحها أن يفعلوها وعيوبها أن يصلحوها وحظوظها أن يتناولوها ومن أعظم مصالحها وأنفع حظوظها ذكرها لربها وفاطرها وهي لا نعيم لها ولا سرور ولا فلاح ولا صلاح إلا بذكره وحبه وطاعته والإقبال عليه والإعراض عما سواه فأنساهم ذلك لما نسوه وأحدث لهم هذا النسيان نسيانا آخر وهذا ضد حال الذين ذكروه ولم ينسوه فذكرهم مصالح نفوسهم ففعلوها وأوقفهم على عيوبها فأصلحوها وعرفهم حظوظها العالية فبادروا إليها فجازى أولئك على نسيانهم بأن أنساهم الإيمان ومحبته وذكره وشكره، فلما خلت قلوبهم من ذلك لم يجدوا عن ضده محيصا."[27]

وهل هناك خسارة أعظم من أن يخسر الإنسان نفسه، فيضيع مصالحها، وسعادتها في الدنيا، ويحرمها نعيم الجنة وسعادة الآخرة، كل ذلك بسبب جريه ولهثه وراء حطام الدنيا، ومتاعها الفاني المُنَغَّص والمُكَدَّر بالآفات ونوائب الدهر. ولما نسي هذا الغافل ربه وخالقه ورازقه، أنساه سبحانه نفسه، وتركه في دنياه يخبط خبط عشواء، متبعا هواه لا

[27]- **تفسير القرآن الكريم**، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط1، 1410هـ

يهتدي سبيلا، والجزاء من جنس العمل.

**2- ظلمه القلب وعماه**

لا شك أن كثرة المعاصي وتراكمها في القلب تسيره مظلما مسودا. قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَل رَّانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ (المطففين 14). وقال رسول الله ﷺ: "إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها قلبه، وإن زاد زادت حتى يعلق بها قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه: ﴿كَلاَّ بَل رَّانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.[28]

وهذا الران يكون سببا في انطماس وذهاب نور القلب، فيصاب بالعمى حتى لا يستطيع التمييز بين الخير والشر، ولا بين الحلال والحرام، ولا بين الحق والباطل، فيقود صاحبه إلى الهلاك. نسأل الله السلامة والعافية. قال عبد الله بن عباس: "إن للحسنة ضياء في الوجه ونورا في القلب، وسعة في الرزق، وقوه في البدن، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوادا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنا في البدن ونقصا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق".[29]

28- **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**؛ عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، أبو محمد، زكي الدين المنذري (ت 656 هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1417، ج4/ص47.

29- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ابن القيم؛ المرجع السابق، ج1 ص 423.

### 3- محق البركة

ومن العقوبات المهلكة للعصاة والمذنبين؛ محق بركة أعمارهم وأرزاقهم وأعمالهم، لا ينتفعون من ذلك بشيء مهما عمروا، ومهما جمعوا من أموال وحطام الدنيا، إذ أبى الله إلا أن يحرمهم بركة الرزق والعمر، والحياة كلها؛ جزاء وفاقا. والخلاصة أن أمر التوبة عظيم وجليل، وما لم يقلع العبد عن ذنوبه ويتجرد منها، محققا بذلك التوبة النصوح، فإن مآله الخسران المبين في الدنيا والآخرة، وما ربك بظلام للعبيد.

## فوائد التوبة وثمراتها في القرآن الكريم

إن للتوبة فوائد وثمرات كثيرة وعظيمة، منها:

1- محبة الله للعبد التائب

لا يعرف طعم التوبة، وحلاوتها، ونعيمها، إلا من تذوقها وعاش تحت ظلالها. فلا غرو إذ هي من أسباب طمأنينة النفس، وطرب القلب، وسعادة الروح. وكفى بثمارها وبشائرها أن ينال التائب حب الله له، لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ۝﴾ (البقرة 220). وإذا أحب الله عبدا جعله وليا من أوليائه.

ومن أحبه الله صار مؤيدا ومحفوظا، وتتنزل عليه البركات والرحمات، وتستجاب له الدعوات. وهكذا فإن التوبة توجب للتائب المَحبَّةَ، والرِّقةَ، واللُّطفَ، وشُكْرَ الله، وحَمْدَه، والرضا عنه، كما توجب له الذُّلَّ والانكسارَ، والخضوعَ، والافتقار سر العبودية.

2- الفلاح في الدنيا والآخرة لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً اَيُّهَ ٱلْمُومِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور 31).

3- الفوز بالجنة ونعيمها المقيم؛ لقوله عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ اَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59) اِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحاً فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْـٔاً (60)﴾ (مريم 56)..

4- نزول البركات من السماء وزيادة القوة لقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ اِسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً اِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ (هود 52).

5- أنها سبب في دعاء الملائكة للتائبين قال الحق سبحانه: ﴿اَلذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُومِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (غافر 7).

6- تبديل السيئات حسنات

وهذا من نعم الله وفضائله على عباده التائبين الصادقين في توبتهم. قال تعالى: ﴿اِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحاً فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (الفرقان:70)

وقال الحافظ ابن رجب: "إنما التبديل في حق من ندم على سيئاته وجعلها نصب عينيه، فكلما ذكرها ازداد خوفاً ووجلاً، وحياء من الله

ومسارعة إلى الأعمال الصالحة المكفرة؛ كما في الآية المشار إليها. وما ذكرناه كله داخل في العمل الصالح، ومن كانت هذه حاله فإنه يتجرع من مرارة الندم والأسف على ذنوبه أضعاف ما ذاق من حلاوتها عند فعلها، ويصير كل ذنب من ذنوبه سببا لأعمال صالحة ماحية له، فلا يستنكر بعد هذا تبديل هذه الذنوب حسنات".[30]

7- ومن فوائد التوبة وثمراتها؛ حفظ العبد من الوقوع في حبائل الشيطان، لأن نور التوبة يجعل التائب على بصيرة من أمره؛ قال الحي القيوم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام 122).

**نعمة الاستغفار**

تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة، على أن الاستغفار عبادة من أجل العبادات، لما لها من آثار طيبة، وثمرات زكية يجنيها المؤمنون المستغفرون في الدنيا والآخرة. وحسب الاستغفار شرفا وقدرا، أنه يطهر القلوب من كدر الذنوب ودنسها، ويملؤها بحب الله وطاعته وذكره، حيث يحل برد المغفرة، ولذة الطاعة، محل شؤم المعصية ونكدها وتعاستها. وكفى بالمعاصي والآثام شؤما ونحسا وشرا، أنها تحرم العبد من

[30]- **جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم**؛ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب (736- 795)، المحقق: شعيب الأرناؤوط إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة السابعة، 1417 هـ - 1997 م، ج1، ص300.

العلم والفهم السليم، كما تحول بينه وبين الرحمة والتوفيق والهداية. ناهيك عن أن الذنوب أصل ومعدن المصائب والبلايا، ومفتاح الفتن والفساد. قال الحق سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ (23) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ (24)﴾ (محمد).

ولقد أثنى الله على المستغفرين، ورفع ذكرهم في كتابه المبين؛ إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (15) ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18)﴾ (الذاريات).

وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارا كثيرا".[31]

وقال الحق سبحانه وتعالى في الحديث القدسي:"ياعبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم".[32]

وأعظم أوقات الاستغفار؛ وقت السحر لأن الله تعالى أثنى على المستغفرين بالأسحار؛ إذ قال سبحانه: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ

---

[31]- **سنن ابن ماجه، ابن ماجة**؛ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت 273 )، تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، ج2، ص254.

[32]- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص995.

لِلذِينَ اَ۪تَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِے مِن تَحْتِهَا اَ۬لَانْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ اَ۬للَّهِۖ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِالْعِبَادِۖ (15) اَ۬لذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ اَ۬لنَّارِۖ (16) اِ۬لصَّٰبِرِينَ وَالصَّٰدِقِينَ وَالْقَٰنِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالَاسْحَارِۖ (17)﴾ (آل عمران)، ولأنه وقت التنزل الإلهي كما في الحديث الصحيح المتفق على صحته؛ قال رسول الله ﷺ: "يَنْزِلُ رَبُّنا تَبارَكَ وتَعالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنْيا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فيَقولُ: مَن يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ له، مَن يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَن يَسْتَغْفِرُنِي فأغْفِرَ له".

هذا وإن الاستغفار من موجبات رحمة الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ اَ۬لْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اَ۬للَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَۖ (48)﴾ (النمل).

وللاستغفار صيغ وردت في السنة المطهرة، منها قول النبي ﷺ: "أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله"، كان يقولها ثلاثا دبر الصلوات. وقوله ﷺ: "رب اغفر لي"،

ومن صيغ الاستغفار؛ ما جاء في صحيح مسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن رَسولِ اللهِ ﷺ، أنَّهُ كانَ إذَا قَامَ إلى الصَّلَاةِ آخِر ما يقولُ بيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وَما أَخَّرْتُ، وَما أَسْرَرْتُ وَما أَعْلَنْتُ، وَما أَسْرَفْتُ، وَما أَنْتَ أَعْلَمُ به مِنِّي، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لا إلَهَ إلَّا أَنْتَ".[33]

---

[33]- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص87.

وأما سيد الاستغفار على الإطلاق فهو ما رواه البخاري عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: "سَيِّدُ الِاسْتِغْفارِ أنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أنْتَ رَبِّي لا إلَهَ إلَّا أنْتَ، خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ، وأنا علَى عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بكَ مِن شَرِّ ما صَنَعْتُ، أبُوءُ لكَ بنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأَبُوءُ لكَ بذَنْبِي فاغْفِرْ لِي، فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنْتَ.. قالَ: ومَن قالَها مِنَ النَّهارِ مُوقِنًا بها، فَماتَ مِن يَومِهِ قَبْلَ أنْ يُمْسِيَ، فَهو مِن أهْلِ الجَنَّةِ، ومَن قالَها مِنَ اللَّيْلِ وهو مُوقِنٌ بها، فَماتَ قَبْلَ أنْ يُصْبِحَ، فَهو مِن أهْلِ الجَنَّةِ".[34]

قال الإمام محمد بن القيم رحمه الله:

" فتضمن هذا الاستغفار الاعتراف من العبد بربوبية الله وإلهيته وتوحيده، والاعتراف بأنه خالقه، العالم به؛ إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيته بيده وفي قبضته، لا مهرب له منه، ولا ولي له سواه، ثم التزام الدخول تحت عهده .وهو أمره ونهيه . الذي عهده إليه على لسان رسوله، وأن ذلك بحسب استطاعتي، لا بحسب أداء حقك، فإنه غير مقدور للبشر، وإنما هو جهد المقل، وقدر الطاقة، ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب، فأنا مقيم على عهدك مصدق بوعدك، ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما فرطت فيه من أمرك ونهيك، فإنك إن لم تعذني من شره، وإلا أحاطت بي الهلكة، فإن إضاعة حقك سبب الهلاك، وأنا أقر لك وألتزم بنعمتك علي،

---

34- **صحيح البخاري**، المرجع السابق، ج8، ص71.

وأقر وألتزم وأنجع بذنبي، فمنك النعمة والإحسان والفضل، ومني الذنب والإساءة، فأسألك أن تغفر لي بمحو ذنبي، وأن تعفيني من شره، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار ".[35]

والخلاصة أن للاستغفار ثمرات وفوائد كثيرة؛ منها أنه يقوي الإيمان والتقوى، ويجلب الخيرات المادية والمعنوية، وأنه ييسر الطاعات ويحببها إلى قلوب العباد. ومنها أنه يزيل الوحشة والغربة بين العبد وربه، ويطرد عن المستغفرين التوابين شياطين الإنس والجن. ومنها أنه من أعظم أسباب الظفر بحلاوة الإيمان، وبمحبة الله عز وجل. كما أن الدنيا تصغر في قلب المستغفر التائب إلى الله سبحانه، ويحتقر شهواتها الملهية عن ذكر الله وطاعته، فيقبل على الآخرة إقبال المشتاق. أكرم به من شوق يحملك إلى النعيم المقيم، والنظر إلى وجه الغفور الرحيم الودود الكريم. فالاستغفارَ الاستغفارَ يا مسلم، فإنه دواؤك الكافي وبلسمك الشافي، الزمه مدى حياتك وإلى أن يأتيك اليقين.

**قبس من قصص التو ابين:**

أ- تَوْبَةُ مَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه:

عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرْنِي. فَقَالَ" وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ "قَالَ فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ

[35]- **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدروالحكمة والتعليل**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة: 1398هـ1978 م، ص108.

ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرْنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ" وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ "قَالَ فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرْنِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ" فِيمَ أُطَهِّرُكَ "فَقَالَ مِنَ الزِّنَي. فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ" أَبِهِ جُنُونٌ " فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ فَقَالَ" أَشَرِبَ خَمْرًا "فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ" أَزَنَيْتَ "فَقَالَ نَعَمْ. فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ قَائِلٌ يَقُولُ لَقَدْ هَلَكَ لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ وَقَائِلٌ يَقُولُ مَا تَوْبَةٌ أَفْضَلَ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ ثُمَّ قَالَ اقْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ قَالَ فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ جُلُوسٌ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ " اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ "قَالَ فَقَالُوا غَفَرَ اللَّهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ" لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ".[36]

ب- تَوْبَةُ الْغَامِدِيَّةِ:

عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ جَاءَتِ الْغَامِدِيَّةُ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي. وَإِنَّهُ رَدَّهَا فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَرُدُّنِي لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا فَوَاللَّهِ إِنِّي لَحُبْلَى. قَالَ: "إِمَّا لاَ فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي". فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ قَالَتْ هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ. قَالَ: "اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ " فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ فَقَالَتْ هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ. فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى

---

36- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج3، ص321.

رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ فَرَمَى رَأْسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ فَسَبَّهَا فَسَمِعَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا فَقَالَ: "مَهْلاً يَا خَالِدُ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ ". ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ".[37]

ج- توبة رجل من بني إسرائيل:

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "كَانَ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ لاَ فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا نَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا أَتَى نِصْفَ الطَّرِيقِ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ "قَالَ قَتَادَةُ

37- **صحيح مسلم**،...، ج3، ص323.

فَقَالَ الْحَسَنُ ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَاءَ بِصَدْرِهِ".[38]

ح- تَوْبَةُ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ رحمه الله:

عن الفضل بن موسى: كان الفُضَيْلُ بنِ عِيَاضٍ شاطرًا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقى الجدران إليها، إذ سمع تاليًا يتلو: ﴿أَلَمْ يَانِ لِلذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اِ۬للَّهِ﴾. فلما سمعها قال: بلى يا رب قد آن، فرجع فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها سائل، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح، فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، قال: ففكرت وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين هاهنا يخافونني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام".[39]

قال الشاعر أبو نواس أثناء توبته وزهده:

يا ربِّ إنْ عَظُمَتْ ذنوبي كثرةً ... فلقد عَلِمْتُ بأنّ عفوَك أعظمُ
إنْ كانَ لا يرجوك إلا محسنٌ ... فبمن يَلوذُ ويَستجيرُ المجرمُ
أدعوك ربِّ كما أَمَرْتَ تَضرُّعًا ... فإذا رَدَدْتَ يدي فمن ذا يَرْحَمُ
ما لي إليك وسيلةٌ إلا الرّجا ... وجميلُ عفوِك ثمّ أنّي مسلمُ

---

38- **صحيح البخاري**، المرجع السابق، ج4، ص118.

39- **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي،تحقيق: حسين أسد، شعيب الأرنؤوط،محمد نعيم العرقسوسي، مأمون الصاغرجي، علي أبو زيد، كامل الخراط صالح السمر، أكرم البوشي، إبراهيم بشار معروف محيي هلال السرحان، بإشراف شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1405 هـ- 1985 م. ج8، ص123.

## الفصل الثاني

# التقوى في القرآن الكريم

التقوى لغة واصطلاحا

آيات التقوى

أحاديث نبوية في التقوى

كلمات بعض السلف في التقوى

التقوى في القرآن الكريم

معنى التقوى

أمر الله بالتقوى

ثمرات التقوى وفضائلها في القرآن الكريم

أوصاف المتقين في القرآن الكريم

سبل تحقيق التقوى

# التقوى في القرآن الكريم

## التقوى لغة واصطلاحا

التّقوى لغة: الوقاية، والصّيانة، والحفظ[40] وتأتي أيضاً بمعنى الحذر.[41]

وفي الاصطلاح: " "التقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف، هذا تحقيقه، ثم يسمى الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفاً حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه والمقتضي بمقتضاه، وصار التقوى في تعارف الشرع: حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور".[42]

## آيات التقوى

إن الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ التقوى إسما وفعلا وصفة؛ كثيرة، يزيد عددها على مائتي آية.

منها قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (البقرة 1)

---

[40]- **"التقوى تعريفها وفضلها ومحذوراتها وقصص من أحوالها"**، عمر الأشقر، الأردن: دار النفائس للنشر والتوزيع، 2012 صفحة 9.

[41]- **"نور الهدى وظلمات الضلال في ضوء الكتاب والسنة"**، سعيد بن وهف القحطاني، الرياض: مطبعة سفير، صفحة 321.

[42]- **المفردات فى غريب القرآن، الأصفهانى**؛ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت 502)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط1، 1412. ص 381.

**وقال الحق سبحانه وتعالى:** ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة 280)

**وقال الغني الحميد:** ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15) ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (16) ٱلصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (17)﴾ (آل عمران 15-17).

**وقال العزيز الحكيم:** ﴿يَآأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران 102).

**وقال عز وجل:** ﴿وَلَوَ اَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف 96).

**وقال السميع البصير:** ﴿ يَآأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (الأنفال 29).

**وقال العلي الكبير:** ﴿ أَلآَ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (62) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيا وَفِي ٱلآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (64)﴾ (يونس 62-64)

**وقال الحق سبحانه:** ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ

أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَۚ (30) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ (31) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ (32)﴾ (النحل 30 - 32).

وقال الغفور الرحيم:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَۚ﴾ (الحشر 18).

وقال الحي القيوم:﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً (31) حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰباً (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً (33) وَكَأْساً دِهَاقاً (34) لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّٰباًۖ (35) جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباًۖ (36)﴾ (النبأ 31-36)، إلى غيرها من الآيات البينات التي تذكر فضائل وأسرار التقوى، وتحث المؤمنين على التحلي بها.

## أحاديث نبوية في التقوى

عن أبي ذر الغفاري قال؛ قلت يا رسول الله أوصني، قال: "أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله، قلت يا رسول الله زدني، قال: عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك في الأرض وذخر لك في السماء"[43].

وقال رسول الله ﷺ: " اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ"[44].

---

[43]- **الترغيب والترهيب للمنذري**، المرجع السابق، ج3، ص131.

[44]-**سنن الترمذي**، المرجع السابق، ج4، ص355..

وقال رسول الله ﷺ: " أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ "[45].

وقال رسول الله ﷺ: "إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنه بني إسرائيل كانت في النساء".[46]

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: "من يأخذُ عنِّي هؤلاءِ الكلماتِ فيعملُ بِهنَّ أو يعلِّمُ من يعملُ بِهنَّ قلتُ أنا يا رسولَ اللَّهِ فأخذَ بيدي فعدَّ خمسًا فقالَ اتَّقِ المحارمَ تَكن أعبدَ النَّاسِ وارضَ بما قسمَ اللَّهُ لَك تَكن أغنى النَّاسِ وأحسِن إلى جارِك تَكن مؤمنًا وأحبَّ للنَّاسِ ما تحبُّ لنفسِك تَكن مسلِمًا ولا تُكثرِ الضَّحِك فإنَّ كثرةَ الضَّحِك تُميتُ القلبَ"[47]

## كلمات بعض السلف في التقوى

ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: "التقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل".

وعن قتادة رحمه الله قال: "من يتق الله يكن الله معه، ومن يكن الله عز وجل معه، فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي

---

45- **سنن الترمذي**، ج5، ص44.

46- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص98.

47- **سنن الترمذي**، ج4، ص551.

لا يضل".[48]وعن داود الطائي رحمه الله قال: " مَا أَخْرَجَ اللهُ عَبْدًا مِنْ ذُلِّ الْمَعَاصِي إِلَى عِزِّ التَّقْوَى إِلَّا أَغْنَاهُ بِلَا مَالٍ، وَأَعَزَّهُ بِلَا عَشِيرَةٍ ، وَآنَسَهُ بِلَا أَنِيسٍ "[49].

## التقوى في القرآن الكريم

إن الآيات القرآنية المتعلقة بالتقوى قد تناولت أربعة محاور، وهي: محور معنى التقوى، ومحور أمر الله بالتقوى، ومحور ثمرات التقوى، ومحور أوصاف المتقين.

### 1- معنى التقوى في القرآن الكريم

أطلقت التقوى في القرآن على معاني جوهرية كثيرة منها؛ التوحيد والايمان؛ قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (الفتح 26)، قال المفسرالطبري رحمه الله: "هي لا إله إلا الله محمد رسول الله". وتأتي بمعنى الإخلاص؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ (الحج 32)،أي: أن تعظيم شعائر الله دليل على إخلاص القلب وصدقه مع الله. قال مجاهد: "كلمه التقوى الإخلاص". وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (الحجرات 3)، أي: أخلص قلوبهم لتوحيده.

كما أن التقوى تأتي بمعنى الطاعة والعبادة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

[48]- **صفة الصفوة**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المحقق: أحمد بن علي دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: 1421هـ/2000م، ج2، ص153.

[49]- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، عام النشر: 1394 هـ - 1974 م، ج7، ص356.

ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ (آل عمران 102)، أي: أطيعوا ربكم واعبدوه كما أمركم. ووردت التقوى في القرآن بمعنى أفضل وخير زاد يتزود به المسلم للظفر برضى الله والجنة؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (البقرة 197).

إن التقوى من الكلمات والمصطلحات القرآنية الجامعة والمستوعبة لمعاني العبادة، والعبودية، والافتقار الى الله سبحانه، كما أنها سبب محبته ورضوانه، وطريق الوصول إليه.

ولقد أتى على المسلمين زمن، خلال القرون الثلاثة الأولى، كانت التقوى لباسهم، والخشية سيمتهم. ثم بعد ذلك شرعوا، إلا من عصمه الله، في الانغماس في الدنيا واتباع الشهوات، فابتلاهم الله بأنواع من الابتلاءات، والمصائب، والفتن، وسلط عليهم عدوهم من الكفار والمشركين، مثل: المغول والتتار، والصليبين وغيرهم. ثم المستعمر الأوربي في العصر الحديث؛ إنها سنة الله في عباده لا تتبدل ولا تتغير.

وظل أمر التقوى يضعف تدريجيا، إلى أن وصل حالنا الى ما نحن عليه اليوم؛ حيث استولت الغفلة على القلوب، وقوي الحرص على الدنيا وملذاتها، وانتشرت المنكرات، والسلوكات والأفعال المحرمة. وزهد الناس في الآخرة، ونسوا ربهم فأنساهم أنفسهم.

والتقوى بالنسبةإلى الدين كالروح للجسد. فالدين بلا تقوى كالبيت الخرب المهجور، أو البئر المعطلة. فلا حياه للدين إلا بها؛ إذ هي قطب

رحاه، وأصله الذي قامت وتأسست عليه أحكامه وتشريعاته.

ثم إن التقوى وصية عظيمة وجليلة، مستغرقة لحقوق الله وحقوق عباده؛ قال العزيز الحكيم: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ (النساء 130).

وأصل التقوى أن يكون بين العبد وخالقه ومعبوده، وبين ما يخافه ويحذره؛ مانعا ووقايه تقيه منه. وهذه الوقاية هي القيام بأفعال الطاعة، واجتناب النواهي والمعاصي. ومن هنا فإن التقوى باعتبارها تربية للنفس وتزكية لها، تجعل المسلم دوما في حال خوف، ومراقبة، واستحضار في القلب لعظمة الله وجلاله. كما أنها شعور إيماني يروم ضبط النفس، ومنعها من الوقوع في المعصية والهوى.

**2- أمْرُالله بالتقوى**

لما كانت التقوى أساس الإيمان، وروح تزكية النفس وصلاحها، والوسيلة العظمى لطاعة الله ورسوله، والسبيل الموصل إلى دار النعيم، أمر الله بها في أكثر من سبعين آية. منها:

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة 229).

وقوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة 282).

وقوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران 200).

وقوله جل في علاه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَّآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ (النساء 1).

وقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة 35).

وقوله عز وجل: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأنعام 155).

وقول العلي القدير: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ (الأنفال 25).

وقول الملك الحق المبين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾ (الأنفال 29).

وقول السميع البصير: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ (التوبة 119).

وقول العزيز الحكيم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج 1).

وقول اللطيف الخبير: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيداً﴾ (الأحزاب 70).

وقول الحي القيوم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر 18).

إلى غيرها من الآيات البينات التي تبين أمر الله عباده بالتقوى. والأمر يفيد الوجوب، فعلى كل مسلم عاقل مكلف القيام بما أمره الله، واجتناب ما نهاه عنه، لتتحقق عبوديته وطاعته لمولاه سبحانه.

ويستخلص من هذه الآيات الآمرة بالتقوى معاني وفوائد عظيمة وجليلة؛ منها أن الله علق الفلاح بالتقوى في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران 200). فلا سعادة ولا أمن ولا فلاح في الدنيا والآخرة إلا بتقوى الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، والعض على سنة نبيه ﷺ بالنواجد.

"استمعوا إليّ يا من آمنتم بي (اصبروا) وهذا أمر، و(وَصَابِرُواْ) أمر ثان، و(رَابِطُواْ) أمر ثالث، و(واتقوا الله) أمر رابع.

إنها رابعة أوامر، والغاية من هذه الأوامر هي "لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ". إذن فمن عشق الفلاح فعليه أن ينفذ هذه الأربعة: اصبر، صابر، رابط، اتق الله، لعلك تفلح. والحق سبحانه وتعالى حين يعبر عن الفلاح إنما يعبر بأمر مشهود مُحس للناس جميعاً، لم يقل لك: افعل ذلك لتنجح أو لتفوز. إنما جاء بكلمة (الفلاح). و(الفلاح) كما قلنا: مأخوذ من فلح الأرض. وفلح الأرض هو شقها لتتعرض للهواء، ولتكون سهلة هينة تحت الجذير البسيط الخارج من البذرة، فإذا فلحت الأرض بهذه المشقة حرثاً وبذراً وتعهداً بالري ماذا يحدث لك من الأرض؟ إنها تؤتيك خيراً مادياً مشهوداً ملحوظا.

إذن فقد ضرب الله المثل في المعنويات بالأمر المحُس الذي يباشره الناس جميعا، وأي فَلاَح هذا الذي يقصده الحق سبحانه وتعالى؟ إنه فلاح الدنيا وفلاح الآخرة؛ فلاح الدنيا بأن تنتصروا على خصومكم، وأن تعيشوا معيشة آمنة مستقرة رغدة، وفلاح الآخرة أن تأخذوا حظكم من الخلود في النعيم المقيم".[50]

وكما علق الله الفلاح بالتقوى علق العلم بها أيضا، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة 282). فلا بركة في تحصيل العلوم ونشرها إلا بتقوى الله سبحانه. والخشية أعظم صفة يتصف بها العلماء، قال الحق سبحانه وتعالى "إنما يخشى الله من عباده العلماء" (فاطر 26). إن القرآن العظيم يشير في كثير من الآيات إلى أن التقوى سبب فوز العبد بالهداية والفلاح، وأنها باب العلم ومفتاحه، فمن أخطأ الباب وعَدِمَ المفتاح؛ ضل الطريق وخبط في العلم خبط عشواء. قال المفسر الآلوسي رحمه الله: "اتقوا الله حث على تقوى الله تعالى، "وَيُعَلِّمُكُمُ الله" وعد بإنعامه سبحانه (....)"اتقوا" أي؛ اتقوا الله مضموناً لكم التعليم"[51].

وفُسِّرت الآية أيضا بما نصه: "أي؛ اتقوا الله في جميع ما أمركم به

---

[50]-.**تفسير الشعراوي**– الخواطر، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، 1997، ج4، ص970.

[51]- **روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى**؛ أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، ضبطه وصححه: على عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415١هـ - 1994 م، ج2، ص60.

ونهاكم عنه، وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم، فإنكم لولا هدايته لا تعلمون بذلك".[52] وأمر الله عباده بالتقوى جاعلا إياها سببا لحصول رحمته وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأنعام 155). وهكذا فإن جميع الآيات التي يأمر الله عباده فيها بالتقوى، تشير إلى كل ما ينفع العبد في دنياه، وييسر له طريق الفلاح والفوز بالجنة.

## 3- ثمرات التقوى وفضائلها في القرآن الكريم

لقد ورد ذكر التقوى في القرآن الكريم مقرونا بثمراتها وفضائلها عشرات المرات. والناظر المتأمل في آيات التقوى المقرونة بثمراتها وفوائدها يدرك مدى طيب حياة المتقين وسعادتهم في الدنيا والآخرة. ومن بين هذه الفضائل والثمرات:

- **محبة الله للمتقين**: قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران 76). لا شك أن التقوى أقوى وسيلة موصلة إلى الظفر بمحبة الله لعبده، والشواهد على ذلك من القرآن والسنة كثيرة. ولقد ذكر الله عز وجل في كتابه المبين أنه يحب المتقين، ويحب الصابرين، ويحب التوابين، ويحب المتوكلين، ويحب المحسنين. وكل من الصبر، والتوبة، والتوكل، والإحسان، وغيرها من صفات المتقين،

---

[52]- **تفسير القرآن الحكيم؛ تفسير المنار**، محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990، ج3، ص107.

متعلقة بالتقوى ومتمخضة عنها. ثم إن محبة الله لهم تزداد كلما ازدادوا حرصا على الاتصاف بتلك الصفات، وجاهدوا أنفسهم من خلال محاسبتها ومراقبتها وتزكيتها، وأكثروا من فعل الخيرات وأعمال البر والطاعات، إلى أن يكرمهم الله عز وجل بمحبته وبكرامة ومقام الولاية؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله قال: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ".[53].

**الفوز بالجنة**؛ قال جل في علاه: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (آل عمران 15).

- **تيسير الأمور**؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (7) ﴾ (الليل 5-7). إن الله سبحانه وتعالى عليم بضعف عبده واحتياجه دوما إلى رحمته وشفقته وإحسانه. ورحمة الله الواسعة تشمل في الدنيا جميع العباد سواء كانوا مؤمنين أو كافرين مشركين؛ قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ

[53]- **صحيح البخاري**، المرجع السابق، ج8، ص105.

وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النمل 64)؛ "أي: هل يجيب المضطرب الذي أقلقته الكروب وتعسر عليه المطلوب واضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء أي: البلاء والشر والنقمة إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض يمكنكم منها ويمد لكم بالرزق ويوصل إليكم نعمه وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم ويأتي بقوم بعدكم أإله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئا من ذلك حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله مخلصين له الدين لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته، } قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۝{أي: قليل تذكركم وتدبركم للأمور التي إذا تذكرتموها ادَّكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم فلذلك ما ارعويتم ولا اهتديتم."[54]

ومن الآيات الدالة على أن التقوى سبب تيسير أمور العبد المسلم وسبب تفريج همومه؛ قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجاً ﴾ (الطلاق 2)، وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنَ اَمْرِهِۦ يُسْراً ﴾ (الطلاق 4). فإذا ضاقت بالعبد التقي السبل وتعسر عليه أمره تتداركه رحمة الله، فيصبح ما كان عسيرا يسيرا، وما كان ضيقا فرجا. وهذه سنة إلهية مطردة في حياة العباد المؤمنين. ومن اليسر أن يرزق الله عبده المتقي الصبر على العسر إلى حين حصول الفرج.

---

[54]- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**؛ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المرجع السابق، ص508.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

وَلَرُبَّ نـازِلَـةٍ يَضـيقُ لَهـا الفَتى ذَرعـاً وَعِنـدَ اللَهِ مِنها المَخـرَجُ

ضاقَت فَلَمّا اِستَحكَمَت حلقاتها فُرِجَـت وَكُنـتُ أَظُنُّهـا لا تُفرَجُ

- **الفلاح في الدنيا والآخرة؛** قال سبحانه: "وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (البقره 188)

- **إرشاد العبد وتبصيره بالحق؛** قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال 29). إن التقوى عندما يشع نورها في قلب المؤمن، يغدو هذا النور فرقانا يفرق بين الحق والباطل ويميز بينهما؛ ويكون صاحبه على بصيرة من أمره أينما حل وارتحل، ذلك لأن التقوى، التي هي امتثال الأوامر واجتناب المناهي، وترك الشبهات مخافة الوقوع في المحرَّمات، تورث في قلب المؤمن الفرقان، أي؛ النور المشتمل على العِلم الذي يفرِّق به صاحبُه بين الهدى والضلال، والحقِّ والباطل، والله يهدي لنوره من يشاء من عباده.

قال المفسر أبو محمد الحسين البغوي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله" بطاعته وترك معصيته، "يجعل لكم فرقانا" قال مجاهد: مخرجا في الدنيا والآخرة. وقال مقاتل بنحيان: مخرجا في الدين من الشبهات. وقال عكرمة: نجاة أي يفرق بينكم وبين ما تخافون. وقال الضحاك: بيانا".[55]

---

[55]- **معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي؛** محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن

- **الحمايه من الشيطان؛** قال العزيز الحكيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ (الأعراف 201). "ثم بين- سبحانه - حالة المتقين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾. طائف من الطواف والطواف بالشيء أى: الاستدارة به أوحوله يقال: طاف بالشيء إذا دار حوله. والمراد به هنا وسوسة الشيطان وهمزاته. أي: إن الذين اتقوا الله - تبارك وتعالى - وصانوا أنفسهم عن كل ما يغضبه، إذا مسهم شيء من وسوسة الشيطان ونزغاته التي تلهيهم عن طاعة الله ومراقبته، تَذَكَّرُوا أى: تذكروا أن المس إنما هو من عدوهم الشيطان، فعادوا سريعا إلى طاعة الله، وإلى خوف مقامه ونهوا أنفسهم عن اتباع همزات الشياطين. والجملة الكريمة مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر ببيان أن الاستعاذة سنة مسلوكة للمتقين، وأن الإخلال بها من طبيعة الضالين.

وفي قوله إذا مَسَّهُمْ طائِفٌ إشعار بعلو منزلتهم، وقوة إيمانهم، وسلامة يقينهم لأنهم بمجرد أن تطوف بهم وساوس الشيطان، أو بمجرد أن يمسهم شيء منه، فإنهم يتذكرون عداوته، فيرجعون سريعا إلى حمى ربهم يستجيرون به ويتوبون إليه. وفي التعبير عن الوسوسة بالطائف إشعار بأنها وإن مست هؤلاء المتقين فإنها لا تؤثر فيهم، لأنها كأنها طافت حولهم دون أن تصل إليهم.

---

محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت 510)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت

ط1، 1420 هـ، ج2، ص286.

وقوله فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ أى: فإذا هم مبصرون مواقع الخطأ، وخطوات الشيطان، فينتهون عنها.

وفي هذه الآية الكريمة ما يهدى العقول، ويطب النفوس، إذ هي تبين لنا أن مس الشيطان قد يغلق بصيرة الإنسان عن كل خير، ولكن التقوى هي التي تفتح هذه البصيرة، وهي التي تجعل الإنسان دائما يقظا متذكرا لما أمره الله به أو نهاه عنه، فينتصر بذلك على وساوس الشيطان وهمزاته وتبقى لهم بصيرتهم على أحسن ما تكون صفاء ونقاء وكشفا"[56].

وهكذا فإن تقوى المسلم بمثابة حصن منيع يدفع عنه سهام الشيطان المسمومة، ويجعل العبد التقي في مأمن من مكائده ووساوسه. وكفى بذكر الله والاستعاذة به، سلاحا في وجه هذا العدو الغاشم، لا سيما إذا كان الذكر ممزوجا بالخشية وتعظيم الخالق سبحانه. فلا سبيل للشيطان على المؤمنين الأتقياء الذين لا يغفلون عن ذكره، واستحضار عظمته وجلاله في قلوبهم، مع حرصهم الشديد على اتباع أوامره واجتناب نواهيه، وطاعة رسوله ﷺ. وسرعان ما تندحر وساوس الشيطان التي تحاول مس المتقين والطواف بهم، وذلك بقوة الإيمان ونور التقوى المبدد لظلمات كل الوساوس وأوهامها.

**الأمن من الخوف والحزن:** قال الولي الحميد: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف 35).

---

[56]- **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، طنطاوي؛ محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشروالتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط1، 1998 م. ج5، ص160.

- **تحصيل العلم**؛ قال السميع العليم: ﴿وَاتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ (البقرة 281). إن مما هو أبين من فلق الصبح كون تقوى الله أقوى سبب لتنوير القلب ونفعه بالعلوم والمعارف النافعة. والآيات القرآنية الناطقة بذلك والدالة عليه كثيرة، سواء ذكر فيها ما يفيد العلم لفظا أو لم يذكر؛ حيث أن الآيات العديدة التي ورد فيها لفظ التقوى إسما أو فعلا أو صفة، جاءت مقرونة بأمور منها؛ الصبر، والمحبة، والإنابة، والهدى، والطاعة، والفلاح، والصلاح، والخير، وهذه الأمور تتضمن العلم والمعرفة لا سيما العلم الشرعي. ولولا وجود نصيب لازم من العلم لدى المسلم، لما استطاع التحقق والظفر بها.

وهكذا فإن تحقيق التقوى سببٌ للحصول على العلم النَّافع، قال الإمام القرطبي رحمه الله: "قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ؛ وعدٌ من الله تعالى بأنَّ من اتَّقاه عَلَّمه؛ أي: يجعل في قلبه نورًا يفهم به ما يُلقى إليه، وقد يجعل في قلبه ابتداء فرقانًا؛ أي: فيصلاً يفصل به بين الحقِّ والباطل، ومنه قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَاللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (الأنفال: 29)".[57]

ومعلوم أن المسلم الذي يغشى الذنوب ويكثر من المعاصي، تضعف التقوى في قلبه تدريجيا، فيحرم العلم الهادي إلى الاستقامة والصلاح. قال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

---

[57]- **تفسير القرطبي**، المرجع السابق، ج3، ص106.

شَـكَوتُ إِلى وَكيعٍ سـوءَ حِفظي فَـأَرشَـدَني إِلى تَركِ المَعاصـي
وَأَخـبَـرَني بِـأَنَّ الـعِـلـمَ نـورٌ وَنـورُ اللهِ لا يُهـدى لِعـاصـي

**التوسعة في الرزق:** قال الله عز وجل: ﴿وَلَوَ اَنَّ أَهْلَ اَ۬لْقُر۪يٰٓ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ اَ۬لسَّمَآءِ وَالَارْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَۖ﴾ (الأعراف 96). وكما أن التقوى سبب الظفر بالهدى والعلم النافع، فهي أيضا سبب جلب الرزق وكسبه. والله سبحانه وتعالى وعد المتقين بالأرزاق الطيبة والخيرات العميمة، وأنذر وحذر المذنبين والعصاة الذين يُحرَمون الرزق بسبب عصيانهم وفسادهم. يقول المفسر عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسل يبتلون بالضراء موعظة وإنذارا، وبالسراء استدراجا ومكرا، ذكر أن أهل القرى، لو آمنوا بقلوبهم إيمانا صادقا صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهرا وباطنا بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدرارا، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم، في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. بالعقوبات والبلايا ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلا فلو آخذهم بجميع ما كسبوا، ما ترك عليها من دابة. ﴿ظَهَرَ اَ۬لْفَسَادُ فِے اِ۬لْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتَ اَيْدِے اِ۬لنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ اَ۬لذِے عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَۖ﴾[58].

[58]- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، المرجع السابق، ص 298.

- **حفظ المؤمن من كيد الأعداء**؛ قال الولي الحميد: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضِرْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاًۗ اِنَّ اَ۬للَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ (آل عمران 120).

- **قبول الأعمال**؛ قال الملك الحق: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اُ۬للَّهُ مِنَ اَ۬لْمُتَّقِينَۖ﴾ (المائدة 27).

إلى غيرها من الفوائد والثمرات العظيمة التي يجنيها المؤمنون المتقون الذين أخلصوا دينهم لله وامتثلوا أوامره، وتعلقت قلوبهم بذكره.

## 4- أوصاف المتقين في القرآن الكريم

ورد لفظ المتقين في القرآن الكريم أكثر من أربعين مرة؛ مرفوعا ومنصوبا ومجرورا بحرف الجر أو بالإضافة. قال الله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ اَ۬لذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ اُ۬لْمُتَّقُونَۖ﴾ (البقرة 176). وقال سبحانه: ﴿مَّثَلُ اُ۬لْجَنَّةِ اِ۬لتِے وُعِدَ اَ۬لْمُتَّقُونَ تَجْرِے مِن تَحْتِهَا اَ۬لاَنْهَٰرُ﴾ (الرعد 36). وقوله عز وجل: ﴿اِنَّ اَ۬لْمُتَّقِينَ فِے جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ (45) اُ۟دْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ـ امِنِينَۖ (46) ﴾ (الحجر 45-46). وقول السميع البصير: ﴿اِنَّ اَ۬لْمُتَّقِينَ فِے جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ (54) فِے مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقْتَدِرِۢ (55) ﴾ (القمر 54-55). وقال العلي الحكيم: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدىٗ وَمَوْعِظَةٞ لِّلْمُتَّقِينَۖ﴾ (آل عمران 138). وقال الحي القيوم: ﴿تِلْكَ اَ۬لدَّارُ اُ۬لاَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاٗ فِے اِ۬لاَرْضِ وَلاَ فَسَاداٗۖ وَالْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَۖ﴾ (القصص 83)، إلى غيرها من الآيات الجليلة.

## المتقون هم الصابرون

بما أن التقوى أمر عظيم وجليل، ومحبوب إلى القلوب المؤمنة الطاهرة، ويستلزم من الطاعات ومجاهدة النفس ما هو معلوم عند أهله، يتوجب على الراغبين في التحقق بها أن يكونوا موصوفين بصفات المتقين المنصوص عليها في الكتاب والسنة.

ومن هذه الصفات؛ صفة الصبر. والصبر اصطلاحا "حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع".[59] ولكي يفوز المسلم برضا الله سبحانه، وينعم بجزائه وثوابه، ويحشر في زمره المتقين، يلزمه التسلح بالصبر والاعتماد عليه. فالصبر شرط أساسي لحصول التقوى. واقترنت التقوى بالصبر في قوله تعالى، حكايه عن يوسف عليه السلام، ﴿إِنَّهُۥ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف 90). قال المفسر أحمد المراغي رحمه الله: "إن الحق الذي نطقت به الشرائع وأرشدت إليه التجارب، هو من يتق فيما به أمر وعنه نهي، ويصبر على ما أصابه من المحن، وفتن الشهوات والأهواء، فلا يستعجل الأقدار بشيء قبل أوانه، فان الله لا يضيع أجره في الدنيا ثم يؤتيه أجره في الآخرة".[60]

## المتقون هم الشاكرون

ومنها صفه الشكر؛ إن اتقاء الله في أمره ونهيه، والاجتهاد في طاعته،

---

59- "**المفردات**"، الأصفهانى، المرجع السابق، ص 174.

60 - **تفسير المراغى**؛ أحمد بن مصطفى المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، 1365هـ- 1946 م، ج13، ص35.

يمثل جوهر الشكر وحقيقته؛ فكل متق شاكر وصابر. ولا شك أن العلاقه بين التقوى والشكر وطيدة وقوية. بل إن التقوى أعظم صورة من صور الشكر، وأقوى دليل على كون المسلم المتقي شاكرا لله. قال تعالى: ﴿فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (آل عمران 123).

## المتقون هم المحسنون

ومنها صفة الإحسان؛ والاحسان أعلى المقامات الإيمانية، وأسمى منازل العبادة والعبودية. وفي سبيل الوصول إليه والظفر به؛ اجتهد المتقون وضحوا بالغالي والنفيس، مقبلين على طاعة ربهم، لا تلهيهم تجارة ولا دنيا فانية عن ذكر الله، والمسارعة الى مرضاته سبحانه. وقد عرفه النبي ﷺ وبينه، حين سأله جبريل عليه السلام: "فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

وقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة 95). قال المفسر محمد بن جرير الطبري رحمه الله: "إن الاتقاء في الأولى هي مخافة الله ومراقبته، وتصديق الله ورسوله، فيما امرهم ونهاهم، فأطاعوهما في ذلك كله، واكتسبوا من الأعمال ما يرضاه الله في ذلك، مما كلفهم بذلك ربهم. وان التقوى والايمان في الثانية، هي مخافة الله ومراقبته، باجتناب محارمه بعد ذلك التكليف. فثبتوا على اتقاء الله في ذلك والايمان به، ولم يغيروا ولم يبدلوا. أما التقوى في الثالثة التي أضيف إليها الإحسان، هي الخوف من الله.

فدعاهم خوفهم من الله إلى الإحسان. وذلك الإحسان هو العمل بما يفرضه عليهم من الأعمال، ونوافل تقربوا بها الى ربهم، طلبا رضاه وهربا من عقابه... والله يحب المتقربين إليه بنوافل الأعمال التي يرضاها. فالاتقاء الأول هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق... والثاني الاتقاء بالثبات على التصديق وترك التبديل والتغيير. والاتقاء الثالث هو الاتقاء بالاحسان والتقرب إليه بنوافل الاعمال".[61]

ومن الإحسان؛ حسن معاشره الزوج لزوجته، بالرأفة بها، والإشفاق عليها، والصبر على ما قد يصدر منها من تصرف أو سلوك مذموم. قال تعالى: ﴿وإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ (النساء 127). وصفة الإحسان تشمل جانبي العبادة والمعاملة. والشريعة تحث المؤمن وتندبه إلى العمل الإحساني، فيما يخص علاقته بربه، وعلاقته بالناس وسائر المخلوقات؛ لا سيما من ذوات الأرواح. ومن صفات المتقين كذلك؛ حرصهم على الطاعات، والإنفاق في سبيل الله، والتخلق بالأخلاق الحسنة الحميدة، والمسارعةإلى أعمال البر، والتودد إلى عباد الله، والعمل برسالة الاسلام، والقيام بوظيفة الاستخلاف كما أمر الله. وكل ذلك يندرج في الإحسان.

**المتقون أهل المعية الربانية**

إن المتقين الوارد ذكرهم في تلك الآيات، قد اجتباهم الله سبحانه

---

[61]- **جامع البيان عن تأويل آى القرآن، الطبري**؛ أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (ت 310)، دار التربية والتراث - مكة المكرمة، ج8، ص565.

وأكرمهم بمزايا وفضائل عظيمة؛ من بينها مزية وكرامة المعية الربانية؛ قال الملك الحق المبين: ﴿وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة 193)، ومن كان الله معه كان محفوظا ومشمولا بعنايته سبحانه. قال رسول الله ﷺ: "احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة"[62].

## المتقون أهل المحبة الربانية

ومن المزايا والكرامات أيضا؛ كرامة المحبة، أي؛ محبة الله لعبده المتقي؛ قال اللطيف الخبير: ﴿بَلىٰ مَنَ اَوْفىٰ بِعَهْدِهِۦ وَاتَّقىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران 76). "فقال:" بلى"، أي :ليس الأمر كما تزعمون أنه ليس عليكم في الأميين حرج، بل عليكم في ذلك أعظم الحرج وأشد الإثم ."من أوفى بعهده واتقى"والعهد يشمل العهد الذي بين العبد وبين ربه، وهو جميع ما أوجبه الله على العبد من حقه، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد، والتقوى تكون في هذا الموضع، ترجع إلى اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق، فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى."[63]

## المتقون أولياء الله

عن أبي هريره رضي الله عنه قال؛ قال رسول الله ﷺ: "إن من عباد الله

[62]- **سنن الترمذى**، المرجع السابق، ج4، ص567.

[63] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص135.

عباد ليسوا بأنبياء، يغبطهم الأنبياء والشهداء. قيل من هم يا رسول الله؟ قال هم قوم تحابوا بنور الله، من غير أرحام ولا أنساب، وجوههم من نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[64].

قال الشوكاني رحمه الله: "والمراد بأولياء الله خلص المؤمنين، كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته... فهم يؤمنون بما يجب الإيمان به، ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصيه سبحانه... وإنهم لا يخافون كما يخاف غيرهم... فهم على ثقة من أنفسهم وحسن ظن بربهم. وكذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب، لأنهم يعلمون ان ذلك بقضاء الله وقدره، فيسلمون للقضاء والقدر، ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر".[65]

**المتقون هم الفائزون بالجنة**

ومن الكرامات والعطايا كذلك؛ فوز المتقين بالجنة والنعيم المقيم الأبدي على سرر متقابلين. فأي إكرام بعد هذا الإكرام؟ وأي ثواب أعظم من هذا الثواب؟ وقد رضي الله عنهم، وأنزلهم المنزلة الرفيعة، متنعمين بمُلك الجنة، وما يحويه مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على

---

[64]- **صحيح ابن حبان**: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البُستي (ت 354)، المحقق: محمد علي سونمز، خالص آي دمير، دار ابن حزم – بيروت، ط1، 1433هج- 2012م، ج1، ص 171.

[65]- **فتح القدير**؛ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - 1414 هـ، ج2، ص519.

قلب بشر؛ قال الغني الحميد: ﴿وإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20) عَالِيهِمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً (22) ﴾ (الإنسان 20-21-22). وقال العلي العظيم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الدخان 48 - 54). ثم إن الله سبحانه وتعالى قد أكرم أهل الجنة بكرامة النظر إلى وجهه الكريم، وهذا أعظم عطاء وتشريف وحفاوة، وله تشوَّف المتقون وسعوا إليه بالعبادة والطاعة والإكثار من الأعمال الصالحة، جعلني الله منهم والمسلمين أجمعين.

## سبل تحقيق التقوى

إن التقوى أمر شديد وثقيل على النفس الأمارة والغافلة، لما فيها من تقييد لها، ومنعها من أن تهيم على وجهها منجذبة إلى رغباتها وأهوائها. ويصعب على المسلم الظفر بلباس التقوى، إذا لم ينازل نفسه منازلة الفارس؛ مستعينا بوسائل وطرق تربوية وإيمانية فعالة، ومسترشدا بالمنهج النبوي فيما يخص تربية النفس وتزكيتها، وهذه بعض أهم سبل ووسائل تحقيق التقوى مستخلصة من الكتاب والسنة:

**1- إخلاص العبادة لله**

قال الحي القيوم: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (البينه 5). واقتران العبادة بالإخلاص في القرآن كثير، مما يدل على أهمية هذه الصفة الإيمانية، وكونها شرطا في قبول عبادة الله، فان الله لا يقبل عبادة المشركين، ولا المنافقين، ولا المرائين المعجبين بأنفسهم.

**2- المحافظة على تلاوة القرآن والعمل به**؛ قال الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس 57). قال المفسر عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "يقول الله تعالى مرغبا للخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم، بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: تعظكم وتنذركم عن الأعمال الموجبه لسخط الله، المقتضيه لعقابه، وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها، وشفاء لما في الصدور، وهو هذا القران؛ شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني، فان ما فيه من المواعظ، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة والرهبه... وهدى ورحمة للمؤمنين فالهدى هو العلم بالحق والعمل به، والرحمة هو ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به... واذا حصل الهدى، وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح

والسرور"[66].

إن الخير كل الخير، في طاعة العبد مولاه، والإقبال على كتابه العزيز قراءة وتدبرا، والاجتهاد في العمل به، والاحتكام إليه. وما تعس من تعس، ولا شقي من شقي من المسلمين في زماننا هذا، إلا بهجر القرآن والإعراض عنه. إنه كلام الله العزيز والحبل الممدود من السماء إلى الأرض. فمن استمسك به هُدي ونجا وفاز، ومن أعرض عنه ضل وهلك وخسر خسرانا مبينا.

## 3- مجاهدة النفس

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (39) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (40) ﴾ (النازعات 39-40). ولكي تستجيب النفس لصاحبها، وتنتهي عن غيها وهواها، ينبغي العمل على مجاهدتها، وكسر شهوتها، وإرغامها على طاعة ربها؛ وذلك بغية الظفر بالتقوى؛ إذ بدون المجاهدة والمكابدة، مع الصبر والمصابرة، لن يتحقق المسلم بنفس راضية مطيعة لربها، وقد يظل حياته معذبا بسبب رعونتها وعصيانها.

## 4- المحافظة على الفر ائض والإكثار من النو افل

ومن الوسائل المؤدية الى حصول التقوى: المحافظة على الفرائض، والإكثار من النوافل. وهذا سبب قوي لجلب محبة الله. قال رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه: "إن الله قال: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ

---

[66]- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، المرجع السابق، ص366.

بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"[67].

## 5- جلب الخوف بالتخويف

إن الانسان عندما يصاب بمرض ما، فإنه يبادر باستعمال الدواء. وإذا كان قلقا لسبب مادي أو معنوي، فإنه يسعى للتخلص من ذلك القلق. فالشعور بالخوف هو الذي يدفعه للتفكير والعمل على جلب الشفاء والأمن. وإذا غاب الخوف، قد يهمل الإنسان مرضه مما قد يؤدي به إلى الموت. إن عنصر الخوف ضروري لمواجهة الأمراض والمشاكل، وإلا لتعذرت الحياة أو فسدت. ومن رحمة الله الحكيم الرحيم، أن ينبعث منبه الخوف في كيان الإنسان، عندما تعتريه تلك الأحوال والمصائب. بيد أن هناك حالا عظيما وخطيرا يهيمن على الإنسان، وقد يهلكه في الدنيا والآخرة، ومع ذلك لا يشعر صاحبه بالخوف منه؛ إنه حال أو مرض الغفلة عن الله سبحانه؛ إنها قسوة القلب.

إن المسلم الغافل عن عبادة الله، والمقصر في واجباته الدينية، قد تجده يحسن الظن بنفسه وبخالقه، وبما أنه لا يشعر بالخوف مما هو

---

[67]- **صحيح البخاري**، المرجع السابق، ج8، ص105.

فيه من الغفلة، ورعونة النفس، وعصيان الخالق، فلا يرجى شفاؤه وتوبته، إلا أن يشاء الله فيرحمه.

إن الخوف ينبعث تلقائيا في باطن الإنسان، عندما يتعلق الأمر بمصيبة دنيوية، أو مرض عضوي، أو قلق نفسي، إلى غير ذلك من المشاكل أو الأمراض التي يحس المصاب بألمها ووطأتها. أما فيما يخص مرض الغفلة، وقساوه القلب، والإعراض عن الله، فإن منبه الخوف غالبا ما يكون ضعيفا أو منعدما. ولذا تجد أكثر الناس غافلين عن ربهم مشغولين بدنياهم. قال الله عز وجل: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء 1)، وقال الغني الحميد: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق 22).

فالخوف الأول تلقائي وطبيعي، يداهم الإنسان المصاب، فيزعجه وينبهه. أما الخوف من الله المؤدي إلى التوبة واجتناب الغفلة، فلا سبيل للظفر به واستحضاره، إلا بمجاهدة النفس باتباع الأوامر واجتناب النواهي، والعزم على التوبة.

إن الخوف المطلوب واللازم إذن؛ ليس خوف إقرار واعتراف، أي؛ أن يقول المسلم مثلا؛ أنا أومن بعذاب الله وأخشى أن يصيبني، وإنما المطلوب؛ الخوف المنبه والمزعج والمقلق.

إن الله من خلال آيات الوعيد، يخوفنا بالعقاب لنخوف أنفسنا. فالمقصد من الوعيد هو إحداث الخوف في القلب كي تحصل التوبة

والإنابة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (الزمر 51). ولا وسيلة لإحداث هذا الخوف، إلا التخويف الذي هو عملية نفسية إرادية، يمارسها المسلم بالمجاهدة، من خلال الذكر، والتفكر، والتدبر في القرآن، ومحاسبة النفس ومراقبتها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس9- 10)

إن الخوف المزعج والمقلق شرط لازم لحصول التوبة والرجوع إلى الله، وهو الغاية من تكرار آيات الوعيد في القرآن. فالمسلم مأمور بتخويف نفسه كي ينقذها من النار، بل هذا التخويف واجب وفرض عين.

وعندما يتكلف المسلم الصادق هذا التخويف، ويستعمل أسبابه، ويمارسه بصدق وإخلاص، يمن الله عليه بالخوف المطلوب، فتقوى حرارته في قلبه، ويحصل خشوع القلب والجوارح، فينشط للعباده والذكر. وقد ينعم الله على عبده بالخوف المطلوب تفضلا، ويدنيه منه تكرما؛ حيث قد يباغته هذا الخوف ويستولي على قلبه. لكن العبد إذا لم يكرمه الله بذلك الخوف تفضلا، فلا عذر له إن ترك تكلف التخويف، وجلب الخوف المقصود إلى قلبه، والله اعلم.

## الفصل الثالث

# تزكية النفس في القرآن الكريم

تزكية النفس لغة واصطلاحا

آيات تزكية النفس

أحاديث نبوية في تزكية النفس

أقوال السلف في تزكية النفس

تزكية النفس في القرآن الكريم

تزكية النفس مقصد ديني عظيم

تزكية النفس سبيل الفلاح

تزكية النفس توفيق من الله سبحانه

تزكية النفس تثمر الذوق الإيماني

تزكية النفس بالاتباع لا بالابتداع

تزكية النفس سلوك شامل لحياة المسلم

وسائل تزكية النفس

# تزكية النفس في القرآن الكريم

## تزكية النفس لغة واصطلاحا

تدل كلمة التزكية لغة على النماء والريع ويقال: "زكا الزرع زكاءً أي نماءً وكل شيء يزداد وينمو فهو يزكو زكاءً، ويقال أرض زكية: أي طيبة سمينة حكاه أبو حنيفة".[68] "زكاه الله تزكية أي نماه وطهره وتزكى فلان تزكيا أي يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح ويكون زكيا".[69]

## آيات تزكية النفس

دعا القرآن الكريم المسلم إلى تزكية نفسه وتطهيرها في آيات كثيرة منها:

قال الحق سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة 129).

وقال العزيز الحكيم: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 150).

---

[68]- **لسان العرب**، ابن منظور؛ محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاريالرويفعى الإفريقى (ت 711)، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر – بيروت، ط3، 1414هج، ج14، ص358.

[69]- **البستان فى إعراب مشكلات القرآن - من الأنبياء إلى آخره**، (وهو كل ما عُثر عليه من الكتاب)؛ أحمد بن أبى بكر بن عمر الجبلى المعروف بابن الأحنف اليمنى (ت 717 هـ). دراسة وتحقيق: الدكتور أحمد محمد عبد الرحمن الجندى، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولى، 1439 هـ - 2018)، ج4، ص395.

وقال اللطيف الخبير:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُومِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنَ اَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمُۥٓ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِے ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍۖ﴾ (آل عمران 164).

وقال الحي القيوم: ﴿اَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۖ بَلِ اِ۬للَّهُ يُزَكِّے مَنْ يَّشَآءُۖ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلًاۖ﴾ (النساء 49).

وقال العليم الخبير: ﴿خُذْ مِنَ اَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمُۥٓۖ إِنَّ صَلَوَٰتِكَ سَكَنٌ لَّهُمْۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌۖ﴾ (التوبة 103).

وقال العلي الكبير:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ اِ۬لشَّيْطَـٰنِۖ وَمَنْ يَّتَّبِعْ خُطُوَٰتِ اِ۬لشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَامُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِۖ وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنَ اَحَدٍ اَبَداً وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّے مَنْ يَّشَآءُۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌۖ﴾ (النور 21).

وقال تعالى: ﴿قَدَ اَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (14) وَذَكَرَ اَ۪سْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰۖ (15)﴾ (الأعلى).

وقال الغفور الرحيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا" (الشمس 9).

## أحاديث نبوية في تزكية النفس

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ: " إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا،

وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ".[70]

وقال النَّبي ﷺ: "دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبيلِ اللَّهِ. وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ. وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ. وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ. أَعْظَمُهَا أَجْرًا للذي أنفقته على أهلك".[71]

وقال ﷺ: "عجَبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلَّا للمؤمن؛ إن أصابته سرَّاء شكَر، فكان خيرًا له، وإن أصابتْه ضرَّاء صبر، فكان خيرًا له".[72]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبي الله ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكَشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ شَهْرًا - وَمَنَ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامِ ".[73]

---

[70]- **صحيح البخاري**، المرجع السابق، ج1، ص16.

[71]- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج2، ص592.

[72]- **صحيح مسلم**، " " ج4، ص295.

[73]- **المعجم الكبير**، الطبراني؛ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمى الشامى، أبو القاسم الطبرانى (ت 360)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط2، د.ت، ج12، ص153.

وقال رسول الله ﷺ : " مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ. مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ. مِنْ غَيْرِ أَنْ ينقص من أوزارهم شيء ".[74]

وقال رسول الله ﷺ: "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة. ومن ستر مسلما، ستره الله في الدنيا والآخرة. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له به طريقا إلى الجنة. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه ".[75]

وقال نبينا صلوات الله وسلامه عليه: "مَثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مَثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعَى له سائرُ الجسد بالسَّهر والحُمَّى".[76]

وعن أبي سعيد الخدري رضيَ الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "مَن رأى منكم منكرًا فليغيِّرهُ بيده، فإنْ لم يستطعْ فبلسانه، فإنْ

---

[74]- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج2، 704.
[75]- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص74.
[76]- **صحيح مسلم**، ج4، ص999.

لم يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان"[77].

وعن حذيفة رضيَ الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: "والذي نفسي بيده، لتأمرُنَّ بالمعروفِ ولتنهوُنَّ عن المنكر، أو ليوشِكنَّ اللهُ أنْ يبعثَ عليكم عذابًا من عنده، ثم لتدعُنَّهُ ولا يُستجابُ لكم".[78]

وقال رسول الله ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".[79]

وقال نبينا صلوات الله وسلامه عليه: "اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحوها وخالق الناس بخلق حسن".[80]

وقال رسول الله ﷺ: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا".[81]

## بعض أقوال السلف في تزكية النفس

قال الشافعي رحمه الله تعالى: "خير الدنيا والآخرة في خمس خصال:

غنى النفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، ولبس التقوى، والثقة بالله عز وجل على كل حال، وقال للربيع عليك بالزهد، وقال أنفع الذخائر التقوى وأضرها العدوان، وقال من أحب أن يفتح الله قلبه أو ينوره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه واجتناب المعاصي ويكون له خبئة

---

[77]- "  "  "  " ج1، ص69.

[78]- **سنن الترمذي**، المرجع السابق، ج4، ص168.

[79]- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص987.

[80]- **سنن الترمذي**، المرجع السابق، ج4،ص355.

[81]- **سنن أبي داود**، ج4، ص220.

فيما بينه وبين الله تعالى من عمل، وفي رواية فعليه بالخلوة، وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء، وقال يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها"[82].

وقال سفيان بن عيينة: "كان أهل الصلاح يكتب بعضهم إلى بعض بهذه الكلمات: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه"[83].

## تزكية النفس في القرآن الكريم

إن الناظرالمتفكر في آيات تزكية النفس، يدرك أن لتزكية النفس في القرآن معاني سامية ومقاصد جليلة، منها؛ أن تزكية النفس مقصد ديني عظيم، وأنها أجلُّ وظيفة من وظائف الرسل، وأنها سبيل الهداية والفلاح، وأن القيام بها توفيق ونعمة من الله، وأنها تثمر الذوق الإيماني، وأنها لا تصح إلا بالاتباع، وأنها تشمل جميع أفعال المسلم ومعاملاته. إلى غيرها من المعاني والمقاصد، والغايات الدينية النبيلة.

### 1- تزكية النفس مقصد ديني عظيم

قال الحق سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُومِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنَ اَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمُۥٓ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن

---

82- **تهذيب الأسماء واللغات**؛ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د.ت.، ج1، ص55.

83 - **صفة الصفوة**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزي، المحقق: أحمد بن علي دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: 1421هـ/2000م، ج2، ص59.

كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران 164). قال المفسر عبد الرحمن السعدي رحمه الله: " هذه المنة التي امتن الله بها على عباده، أكبر النعم، بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة، فقال: "لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم" يعرفون نسبه، وحاله، ولسانه، من قومهم وقبيلتهم، ناصحا لهم، مشفقا عليهم، يتلو عليهم آيات الله، يعلمهم ألفاظها ومعانيها "ويزكيهم" من الشرك، والمعاصي، والرذائل، وسائر مساوئ الأخلاق. "ويعلمهم الكتاب" إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، فيكون قوله:"يتلو عليهم آياته" المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب هنا الكتابة، فيكون قد امتن عليهم، بتعليم الكتاب والكتابة، التي بها تدرك العلوم وتحفظ، "والحكمة" هي: السنة، التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها، ومعرفة أسرار الشريعة. فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تنفذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين، "وإن كانوا من قبل" بعثة هذا الرسول"لفي ضلال مبين"؛ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكي النفوس ويطهرها، بل ما زين لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض ذلك عقول العالمين"[84].

تشير الآية الكريمة إلى أن الله شرف خُلُق التزكية؛ إذ قرنه وجمعه

---

[84]- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**؛ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المرجع السابق، ص155.

بالكتاب والحكمة في قوله تعالى: "ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة". والنبي ﷺ، كما تشير الآية، كان يزكي أصحابه الأطهار بتعليمهم القرآن الكريم الموحى إليه، والحكمة التي علمه الله إياها. فكانوا خير جيل وارث لأحوال وعلوم تزكية النفس، تلك الأحوال والعلوم التي نوروا بها قلوب التابعين الأخيار، الذين، بدورهم، قاموا بنشرها بين المسلمين من السلف الصالح، إلى أن عم نورها مشارق الأرض ومغاربها، وسيبقى نورها ساطعا إلى أن تطلع الشمس من مغربها. وذهب بعض المفسرين إلى أن الله إذا ذكر الزكاة في القرآن من غير لفظ الإيتاء، فالمقصود بها زكاة النفس؛ وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿قَدَ اَفْلَحَ اَلْمُومِنُونَ (1) اَلذِينَ هُمْ فِے صَلاَتِهِمْ خَٰشِعُونَ (2) وَالذِينَ هُمْ عَنِ اِللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ (4) ﴾، أي؛ مداومون كما في تفسير البيضاوي، وقد أشار ابن عباس رضي الله عنه إلى أن المراد بالزكاة في هذه الآية، زكاة النفس، ورجحه ابن كثير في تفسيره؛ لأن هذه السورة مكية ولم تفرض مقادير الزكوات إلا في المدينة، ثم إن الله سبحانه وصف المؤمنين بتلك الصفات سواء كانوا أغنياء أو فقراء. يستفاد من هذه الأقوال أن بين تزكيتي النفس والمال خصوص وعموم، وأن تزكية النفس أعم من تزكية المال وأشمل؛ إذ تعم جميع أفعال وأقوال المسلم في حياته اليومية. كما أن المقصود السامي والنبيل من زكاة المال؛ هو تطهير النفس وتزكيتها لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنَ اَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةَ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة 103).

قال المفسر محمد بن جرير الطبري رحمه الله: " القول في تأويل

قوله: ﴿خُذْ مِنَ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، خذ من أموال هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم فتابوا منها؛ صدقة تطهرهم من دنس ذنوبهم"وتزكيهم بها" يقول: وتنمّيهم وترفعهم عن خسيس منازل أهل النفاق بها، إلى منازل أهل الإخلاص، "وصل عليهم"، يقول: وادع لهم بالمغفرة لذنوبهم، واستغفر لهم منها "إن صلاتك سكن لهم" يقول: إن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم، بأن الله قد عفا عنهم وقبل توبتهم"والله سميع عليم"، يقول: والله سميع لدعائك إذا دعوت لهم، ولغير ذلك من كلام خلقه عليم بما تطلب بهم بدعائك ربّك لهم، وبغير ذلك من أمور عباده".[85]

## 2- تزكية النفس سبيل الفلاح

قال العليم الحكيم:﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (14) وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ (15) ﴾ (الأعلى 14-15). قال المفسر سيد قطب رحمه الله: "قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى .." والتزكي: التطهر من كل رجس ودنس، "وذكر اسم ربه فصلى" والله سبحانه يقرر أن هذا الذي تطهر وذكر اسم ربه، فاستحضر في قلبه جلاله "فصلى".. إما بمعنى خشع وقنت. وإما بمعنى الصلاة الاصطلاحي، فكلاهما يمكن أن ينشأ من التذكر واستحضار جلال الله في القلب، والشعور بمهابته في الضمير.. هذا الذي

---

[85]-**جامع البيان عن تأويل آى القرآن**، الطبري؛ أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (ت 310)، دار التربية والتراث - مكة المكرمة - ص.ب: 7780، د.ت.، ج11، ص559.

تطهر وذكر وصلى"قد أفلح" يقينا. أفلح في دنياه، فعاش موصولا، حي القلب، شاعرا بحلاوة الذكر وإيناسه. وأفلح في أخراه، فنجا من النار الكبرى، وفاز بالنعيم والرضى.. فأين عاقبة من عاقبة؟ وأين مصير من مصير؟".[86]

فإذا اجتهد المسلم في تزكية نفسه بتطهيرها من الشرك، والمعاصي، والأخلاق المذمومة، وأكسبها الأخلاق والصفات المحمودة، بحملها على القيام بأعمال الطاعات، وفعل الخيرات، فقد فاز وأفلح فلاحا ما بعده فلاح؛ إنه فلاح الدنيا والآخرة. قال تعالى:﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ (الشورى 18). هذا وإن تزكية النفوس مرادفة لتطهير القلوب؛ ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم "، وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب." ولكن عميت القلوب والبصائر، ونسي العباد خالقهم، بعد أن فُتنوا بالدنيا، فأنساهم الله أنفسهم، وحيل بينهم وبين السعادة والفلاح.

ولقد أثر عن نبينا محمد ﷺ، أنه قد خص النفس بكثير من الأدعية الزكية المباركة، قصد تزكيتها والسمو بها. فمنها قوله عليه السلام:

---

86- **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، 1417 هج-1996م، ط. 25.

"اللهمَّ إني أعوذ بك من العجْزِ والكَسَلِ، والجُبنِ والبُخْلِ، والهَرَمِ وعذاب القبر، اللهمَّ آتِ نَفسي تَقْوَاها، وزَكِّها أنت خيرُ مَن زكَّاها، أنت وَلِيُّها ومولاها، اللهمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشَع، ومن نفْسٍ لا تشبع، ومن دعوة لا تستجاب".[87]

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسولَ الله، مُرني بكلماتٍ أقولهن إذا أمسيتُ وإذا أصبحت، قال: "قل: اللهمَّ فاطر السمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغيب والشَّهادة، ربَّ كل شيءٍ ومليكَه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفْسي، وشرِّ الشيطان وشركه، قال: قلها إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك".[88]

وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة رضي الله عنه قال: وقال لي رسولُ الله ﷺ دعَوات المكروب: "اللهم رحمتَك أرجو، فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفَةَ عين، وأَصلِح لي شَأني كلَّه، لا إله إلا أنت".[89]

### 3- تزكية النفس توفيق من الله سبحانه

قال الحليم الشكور: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور 21). جاء في تفسير الوسيط لطنطاوي: "وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ بيان لمظاهر فضله تعالى ولطفه بعباده

---

87- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص88.
88- **سنن الترمذي**، المرجع السابق، ج5، ص167.
89- **سنن أبي داود**، ج4، ص324.

المؤمنين والمراد بالتزكية هنا: التطهير من أرجاس الشرك، ومن الفسوق والعصيان.أى: ولولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون ورحمته بكم، ما طهر أحد منكم من دنس الذنوب، والمعاصى طول حياته، ولكن الله تعالى بفضله ورحمته يطهر من يشاء تطهيره من الأرجاس والأنجاس. بأن يقبل توبته. ويغسل حوبته."والله تعالى" "سميع لدعاء عباده ومناجاتهم إياه "عليم " بما يسرونه وما يعلنونه من أقوال وأفعال".[90]

ومن تمام عبودية العبد؛ أن يُرجِعَ فضل وسبب هدايته وصلاحه، إلى خالقه سبحانه الذي أنعم علينا بالإسلام، وأرسل إلينا نبينا محمدا ﷺ بالحق بشيرا ونذيرا. فلن يهتدي المسلم إلى تزكية نفسه إلا بعون من الله وتوفيقه. بل إن الإيمان بالله، أصل كل خير، منحة ربانية محضة لقوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ (7) فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (8) ﴾ (الحجرات 7-8). فوجود الإيمان في قلوب العباد فضل من الله سابق عن وجودهم الدنيوي، يستلزم الشكر الدائم لله سبحانه. وكل ما يثمره الإيمان من العبادات والطاعات، والمسارعة في فعل الخيرات، مرده إلى الإيمان الموقر والمزين في قلب المؤمن "فضلا من الله ونعمة"؛ سبحانه ما أجوده وأرحمه بعباده.

---

[90]- **تفسير الوسيط**، طنطاوي، المرجع السابق، ج10، ص101.

## 4- تزكية النفس تثمر الذوق الإيماني

غني عن البيان؛ أن الذوق الإيماني ثمرة من ثمرات تزكية النفس، والسمو بها في مدارج المقامات الإيمانية. ذلك أن المسلم الذي يسهر على تربية نفسه، ويصبر على مجاهدتها، وحملها على طاعة ربها، يكرمه الله عز وجل بأن يذيقه طعم الإيمان وحلاوته.

ولقد أخبرنا النبي ﷺ بذوق الإيمان وحلاوة طعمه، فقال: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا" [91]. وقال أيضا: "ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوَةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المرْءَ لا يُحبُّهُ إلَّا للهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ بعدَ إذْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ؛ كَما يَكرَهُ أنْ يُلْقى في النارِ"[92].

قال الفقيه محمد بن القيم رحمه الله: " ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه، وهم الذين آمنوا به وبرسوله. ثم لم يرتابوا في إيمانهم. وإنما انتفى عنهم الريب: لأن الإيمان قد باشر قلوبهم. وخالطتها بشاشته. فلم يبق للريب فيه موضع. وصدق ذلك الذوق: بذلهم أحب إليهم في رضى ربهم تعالى؛ وهو أموالهم وأنفسهم. ومن الممتنع حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان، ووجود حلاوته. فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد. كما قال الحسن: "ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في

---

[91]- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج1، ص62.

[92]- أخرجه **البخاري ومسلم**.

القلب، وصدقه العمل"[93].

لا شك أن أهل الإيمان العاكفين على تزكية النفس، وذلك من خلال مجاهدتها وحملها على طاعة ربها، يغدون ويروحون مستظلين بظلال مقامات روحية سامية من زهد وورع، وأنس، ومحبة، وخوف، ورجاء، وصبر، وشكر، وتوكل، وحياء، وتواضع، وذكر، وتفكر، وتفويض، وسكينة، وطمأنينة... إن هذه المعاني الشريفة المتأصلة في الكتاب والسنة، قد باشرت قلوبهم وذاقوا طعمها الإيماني، وسرى ذوقها في كيانهم، وهو ما يمكن نعته بالنعيم الروحي المستغرق لقلوبهم ووجدانهم. هذا وإن الذوق الإيماني من الموضوعات الروحية اللطيفة التي يستعصي وصفها على العقل، لأن جذورها عميقة في أرض الوجدان، أما كلام أهل الرقائق عنه فإنه لا يعدو أن يكون مجرد إشارات وتلويحات.

## 5- تزكية النفس بالاتباع لا بالابتداع

قال الحق سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَالْيَوْمَ ٱلْاَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب 21). قال المفسر ابن كثير رحمه الله: "هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله، وأفعاله، وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره، ومصابرته، ومرابطته، ومجاهدته، وانتظاره الفرج من

---

[93]- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين**، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط3 1416 هـ - 1996م، ج3، ص91.

ربه، عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ولهذا قال تعالى للذين تضجروا، وتزلزلوا، واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة"؛ أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله؟ ولهذا قال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَالْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرا﴾.[94]

لقد أمرنا الله عز وجل في أكثر من آية، بطاعة نبينا محمد ﷺ والاستجابة له. وطاعته تقتضي الاقتداء به والتمسك بسنته الطاهرة. ولا سبيل إلى التزكية الصحيحة للنفس إلا سبيل ومنهج السنة النبوية المطهرة. وكلما حافظ المسلم على سنة نبيه ﷺ، استفاض من نوره ومن مشكاة النبوة العظيمة. قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال 24). وقد ضل الطريق كثير من الناس؛ حيث لم يهتدوا بسنة نبيهم حينما عزموا على القيام بتزكية أنفسهم وتربيتها، فسلكوا مسلكا مخالفا لما أمر به الشرع، وسقطوا في البدع معرضين عن المنهج النبوي في تزكية النفس. وهكذا لما أعرض كثير من الطوائف الكلامية والصوفية عن العمل بالأحاديث النبوية الصحيحة، والاحتكام إليها، اتبعوا أهواءهم فوقعوا في البدع والضلالات. ويشير الفقيه العلامة محمد بن قيم الجوزية رحمه الله، إلى الصوفية الذين راموا تزكية النفس من طريق غير طريق الصحابة والتابعين من

---

[94]- **تفسير القرآن العظيم**؛ ابن كثيرعماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت 774 هج)، وضع حواشيه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م، ج6، ص350.

السلف الصالح، فيقول رحمه الله: "فصاحب الرياضات، والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات والخلوات: هيهات، هيهات، إنما يوقعه ذلك في الآفات والشبهات، والضلالات. فإن تزكية النفوس مُسَلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاَّهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليماً وبياناً وإرشاداً، لا خلقا وإلهاما. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة 2). وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 151-152). وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل؛ فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم، والله المستعان."[95]

ثم إن أسلوب التلقي الذي ينتهجه المريد مع شيخه الطرقي، لا يخلو من عيوب معرفية وتربوية وأخطاء تعبدية وشرعية، ذلك أن هذه العلاقة تجعل المريد محصورا في دائرة مغلقة، بحيث يكون الشيخ بمثابة النواة المركزية، والمريدون عبارة عن إلكترونات تحوم حولها. وهكذا فإن

---

95- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين**، ابن القيم؛ المرجع السابق، ج2، ص299.

المعارف والأفكار التي يكتسبها المريد، يستمدها من روح شيخه وشخصيته؛ إما يقظة أو مناما، فيتشكل عنده نمط فكري واحد ينتظم من خلاله وبواسطته تصوره الوجودي والكوني، وكذا حياته الاجتماعية والدينية، فتغدو عين الشيخ، تبعا لذلك، المصدر الوحيد للإلهامات والإمدادات، والإشراقات المعرفية.

وبما أن المريد ينظر إلى شيخه الطرقي بعين الرضا والمحبة والتقديس، فإن عقله عاجز عن إدراك ما يمكن أن يصدر عنه من أخطاء وهفوات، وكيف يصدر ذلك عن الشيخ الكامل والقطب الرباني صاحب الأحوال والمقامات؟.!! فالدين هو ما يفهمه شيخه والعبادة ما يمارسها ويدعو إليها.

ومما له علاقة بأسلوب التلقي المشار إليه، ما يتلقاه المريد عن شيخه من الأوراد التي بواسطتها يتقوى قلبه، وتصبو نفسه نحو الترقي في الأحوال والمقامات، بيد أن هذا الترقي كثيرا ما يؤدي بصاحبه إلى الوقوع في الجذب أوالفناء، مما قد يدفع به إلى العزلة التامة عن المجتمع، وهذا ما لا يحصل للمسلم الذي يذكر الله كما أمر، وكما بين نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه، في سنته المطهرة.

قال الفقيه ابن تيمية: "وكذلك العباد إذا تعبدوا بما شرع الله من الأقوال والأعمال ظاهرا وباطنا، وذاقوا طعم الكلم الطيب والعمل الصالح الذي بعث الله به رسوله، لوجدوا في ذلك من الأحوال الزكية والمقامات العلية والنتائج العظيمة، ما يغنيهم عما قد حدث من نوعه

كالتغبير ونحوه من السماعات المبتدعة الصارفة عن سماع القرآن، وأنواع من الأذكار والأوراد لفقها بعض الناس"[96].

وقال الإمام الأصولي أبو إسحاق الشاطبي:

"إن اتباع الهوى طريق إلى المذموم، وإن جاء في ضمن المحمود؛ لأنه إذا تبين أنه مضاد بوضعه لوضع الشريعة، فحيثما زاحم مقتضاها في العمل كان مخوفا. أما أولا فإنه سبب تعطيل الأوامر وارتكاب النواهي، لأنه مضاد لها. وأما ثانيا فإنه إذا اتبع واعتيد ربما أحدث للنفس ضراوة وأنسا به، حتى يسري معها في أعمالها، ولا سيما وهو مخلوق معها ملصق بها في الأمشاج. فقد يكون مسبوقا بالامتثال الشرعي فيصير سابقا له، وإذا صار سابقا له صار العمل الامتثالي تبعا له وفي حكمه، فبسرعة ما يصير صاحبه إلى المخالفة، ودليل التجربة حاكم هنا.

وأما ثالثا، فإن العامل بمقتضى الامتثال من نتائج عمله الالتذاذ بما هو فيه، والنعيم بما يجتنيه من ثمرات الفهوم، وانفتاح مغاليق العلوم. وربما أكرم ببعض الكرامات، أو وُضِع له القبول في الأرض فانحاش الناس إليه، وحلقوا عليه، وانتفعوا به، وأموه لأغراضهم المتعلقة بدنياهم وأخراهم"[97].

---

[96] - **"اقتضاء الصراط المستقيم"**، أحمد بن تيمية، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1419هـ، ص 282.

[97]- ا **المو افقات فى أصول الشريعة**، الشاطبى؛ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمى الشاطبى (ت 790)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن عفان، ط1، 1417هج-1997م.

وليتأمل القارئ اللبيب، كيف نبه المحقق الأصولي أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله، على هذه المسألة الدقيقة، وبين فيها أن اتباع الهوى يجر المسلم إلى المذموم وإن جاء في ضمن المحمود. فالشيخ الطرقي الذي وضع أورادا وصيغا للذكر على طريقة غير طريقة الشرع الحكيم، وعلى منهج لا عهد للصحابة والتابعين به، يكون قد ابتدع في أمر تعبدي وقفي، لا مجال فيه للاجتهاد أو إبداء الرأي، وإن بدا له أن هذه الأوراد والأذكار تدور في فلك أو إطار ما هو محمود ومحبب إلى الله سبحانه. وهذا باب من الأبواب التي سلكها كثير من السالكين والعباد، فزلت فيها أقدامهم. ناهيك عما تطور أو تولد عن هذه الأوراد والأذكار المبتدعة من ألوان الإنشاد والسماع، ثم التواجد والحضرة والرقص، وما يحدث داخل معظم الزوايا الطرقية من ضلالات ومسوخات، وهلم جرا مما يتنافى مع ديننا الحنيف، ولايقبله عقل ولا نقل.

## 6- تزكية النفس في القرآن الكريم سلوك شامل لحياة المسلم

إن آيات تزكية النفس المذكورة في القرآن، تتناول البعد العمودي في تقاطعه مع البعد الأفقي في حياة المسلم، أي؛ أن موضوع تزكية النفس يشمل العبادات والمعاملات في آن واحد. فما من سلوك أو فعل يقوم به المسلم مما له علاقة بعبادة محضة كالصلاة، أو صوم رمضان، إلا وله تجليات وآثار إيجابية على مستوى الحياة الاجتماعية والثقافية والتربوية. وما من سلوك أو فعل متعلق بالحياة العملية كالتجارة، إلا وله

---

لمجلد 1، ج 2، ص 133-134.

علاقة متينة بالدين عقيدة، وعبادة، وعبودية. فلا وجود في الإسلام، لانفصال أو قطيعة بين العبادات والمعاملات، أو بين الدين والدنيا؛ ذلك التصور الخبيث للحياة الإنسانية الذي سنته العلمانية الغربية، فأفسدت به حياة الغربيين، وعقيدة كثير من المسلمين المقلدة الغافلين المفلسين؛ حيث قد تجدهم يصلون ويصومون، ولكنهم يعبدون الدنيا عبادة قوم موسى للعجل. لقد ضل وخسر العلمانيون الغربيون، وأفلس من تبعهم وتمذهب بمذهبهم من أبناء جلدتنا المستغربين المغفلين.

روى أبوهريرة رضي الله أن رسول الله ﷺ سأل أصحابه: "أتدرون من المفلس؟ قالوا: المُفْلِس فينا من لا دِرهَمَ له ولامَتَاع، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شَتَمَ هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسَفَكَ دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقْضَى ما عليه، أخذ من خطاياهم فَطُرِحتْ عليه، ثم طُرِحَ في النار".[98]

ولقد أخطأ من ظن أن مجال تزكية النفس ينحصر في القيام بالواجبات الدينية، من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، واجتهاد في التخلص من أمراض القلب؛ كالرياء، والعجب، والغرور، والحسد،... إلخ، وما يصطلح عليه بالتخلية والتحلية، أي؛ تخلية النفس من الرذائل وتحليتها بالفضائل. فهذا تصور جزئي لمفهوم تزكية النفس. إن مقصود الشرع الحنيف، الذي أمرنا بالقيام بوظيفة الاستخلاف في الأرض، لن يتحقق

---

[98]- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص997.

إلا بتزكية النفس تزكية شمولية؛ أفقية وعمودية تربط الدنيا بالآخرة، والعبادة بالمعاملة. فما زكى نفسه من يرى المنكر ولا يعمل على تغييره قدر الاستطاعة. وما زكى نفسه من لا يحسن معاملة أهله وأقاربه وجيرانه. والأدهى والأمر أن تجد بعض المسلمين سباقين في صلاتهم إلى الصف الأول، بينما يهملون تربية أبنائهم، ولا يعلمونهم الصلاة ولا يحثونهم عليها، وكأنهم غير مسؤولين عنهم. وما زكى نفسه من لديه فضل مال ولا يتصدق منه على قريب، أو مسكين، أو محتاج، وربنا سبحانه يقول: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات 19). وما زكى نفسه من لا يهتم بأمور المسلمين وهو قادر على نفعهم، أو دفع الضرعنهم.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ ٱلذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الأنفال 25). جاء في "التفسير الميسر": "واحذروا أيها المؤمنون اختبارًا ومحنة يُعَمُّ بها المسيء وغيره لا يُخَص بها أهل المعاصي ولا مَن باشر الذنب، بل تصيب الصالحين معهم إذا قدروا على إنكار الظلم ولم ينكروه، واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره ونهيه"[99].

"إن التوجيهات التي رسمت الإطار العام لمنهاج التزكية في القرآن الكريم والحديث الشريف تشير إلى أن التزكية عملية شاملة شمول الحياة نفسها. وأنه في ضوء هذه التوجيهات يمكن أن نعرف التزكية بأنها:

---

[99] - **التفسير الميسر**؛ نخبة من أساتذة التفسير،الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – السعودية الطبعة: الثانية، مزيدة ومنقحة، 1430هـ- 2009 م.، ج1، ص179.

عملية تطهير وتنمية شاملين هدفها استبعاد العناصر الموهنة لإنسانية الإنسان، وما ينتج عن هذا الوهن من فساد وتخلف وخسران، وتنمية كاملة للعناصر المحققة لإنسانية الإنسان، وما ينتج عن هذه التنمية من صلاح وتقدم في حياة الأفراد والجماعات."[100]

والخلاصة أن طريق تزكية النفس يُعَبَّدُ بإخلاص العبادة لله، وباتباع سنة رسوله ﷺ، مع التحلي بالأخلاق الفاضلة، وبالاجتهاد في نفع المسلمين من خلال مودتهم، ونصحهم، والإحسان إليهم، والتعامل مع الحياة الاجتماعية بتفكير حِكَمي وسُنني، باعتبار أن حياة الأفراد والجماعات تسير طبقا للسنن الإلهية، التي يتوجب على المسلم معرفتها والعمل على الانسجام معها، وتجنب الاصطدام بها، لكونها مطردة وصارمة لا تحابي أحدا.

ولقد اهتم السلف الصالح بموضوع تزكية النفس وتربيتها على الأخلاق الحميدة، كما نبهوا إلى أن هناك تلازما بين السلوك والاعتقاد؛ فالسلوك الظاهر يُفصِح عن الاعتقاد الباطن. قال الإمام أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله: "الأعمال الظاهرة في الشرع دليل على ما في الباطن، فإذا كان الظاهر منخرما أو مستقيما، حكم على الباطن بذلك".[101] وقال الفقيه محمد بن قيم الجوزية رحمه الله: "من أحالك على غير أخبرنا وحدثنا، فقد أحالك إما على خيال صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي

---

[100]- **"مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها"**، د. ماجد عرسان الكيلاني، مؤسسة الريان، بيروت، 1419-1998، ج3/ ص135.

[101]- **المو افقات في أصول الشريعة**، الشاطبي؛ المرجع السابق، ج1، ص367.

نفسي. فليس بعد القرآن وأخبرنا وحدثنا، إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوفين، وقياس المتفلسفين. ومن فارق الدليل ضل سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة."[102]

والآيات القرآنية الدالة على المعنى الشمولي لتزكية النفس، وعلى ربط العبادة بالمعاملة كثيرة؛ تشمل مجالات وموضوعات مختلفة، منها؛ آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآيات صلة الأرحام، وآيات الإحسان إلى الأقارب والجيران والفقراء والمساكين، وآيات العدل والإنصاف، وآيات حسن الخلق.

قال الحق سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ اُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ اِلْمُنكَرِ وَتُومِنُونَ بِاللَّهِۖ وَلَوَ ـامَنَ أَهْلُ اُ۬لْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمۖ مِّنْهُمُ اُ۬لْمُومِنُونَۖ وَأَكْثَرُهُمُ اُ۬لْفَٰسِقُونَۖ ﴾ (آل عمران 110).

جاء في التفسير الوسيط:

"والخطاب في هذه الآية الكريمة بقوله تبارك وتعالى كُنْتُمْ للمؤمنين الذين عاصروا النبي ﷺ ولمن أتى بعدهم واتبع تعاليم الإسلام إلى يوم الدين .ولذا قال ابن كثير : والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة. كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم، كما قال - سبحانه - في الآية الأخرى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمُۥٓ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى اَ۬لنَّاسِ وَيَكُونَ اَ۬لرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداًۖ ﴾.

---

[102]- **مدارج السالكين**، المرجع السابق، ج2، ص439

(...). والمعنى : وجدتم يا معشر المسلمين العاملين بتعاليم الإسلام وآدابه وسنته وشريعته خير أمة أخرجت وأظهرت للناس، من أجل إعلاء كلمة الحق وإزهاق كلمة الباطل، ونشر الإصلاح والنفع في الأرض. (...).

فالجملة الكريمة تنوه بشأن الأمة الإسلامية وتعلى من قدرها، فهل تعى الأمة الإسلامية هذا التنويه من شأنها وذلك الإعلاء من قدرها فتقوم بدورها الذي اختاره الله لها، وهو نشر كلمة التوحيد في الأرض وإحقاق الحق وإبطال الباطل شكرا الله-تبارك وتعالى -على جعله إياها خير أمة أخرجت للناس؟؟.

إن واقع المسلمين المليء بالضعف والهوان، والفسوق والعصيان يدمى قلوب المؤمنين الصادقين، ويحملهم على أن يبلغوا رسالات الله دون أن يخشوا أحدا سواه حتى تكون كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي جعلت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس فقال: ﴿تَأمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُومِنُونَ بِاللَّهِۗ﴾ . والمعروف: هو كل قول أو عمل حسنه الشرع، وأيدته العقول السليمة، والمنكر بعكسه.

والمعنى : وجدتم خير أمة أخرجت للناس، لأنكم تأمرون بالمعروف أى بالقول أو الفعل الجميل المستحسن في الشرائع والعقول.

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أى كل قول أو فعل قبيح تستنكره الشرائع ويأباه

أهل الإيمان القويم، والعقل السليم.

وتُؤْمِنُونَ بالله أى تصدقون وتذعنون بأنه لا معبود بحق سواه، وتخلصون له العبادة والخضوع، وتطيعونه في كل ما أمركم به أو نهاكم عنه على لسان رسوله محمد ﷺ.

فأنت ترى أن الخيرية للأمة الإسلامية منوطة بتحقيق أصلين أساسيين: أولهما: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأنهما سياج الدين، ولا يمكن أن يتحقق بنيان أمة على الخير والفضيلة إلا بالقيام بهما".[103]

يتبين من خلال مثال مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن أهم مظهر من مظاهر المعنى الشمولي لتزكية النفس، يتجلى في مدى النفع الذي يجلبه المسلم لأخيه ومجتمعه والإنسانية جمعاء، ومدى حرصه على النصح والإصلاح. ذلك لأن المجتمع المسلم في ترابط أعضائه، وتماسك أركانه وبنيانه، أشبه ما يكون بترابط وتعاضد أعضاء ومكونات جسد الإنسان، لقول النبي ﷺ: "مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم، وتَرَاحُمِهِم، وتعاطُفِهِمْ. مثلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ تداعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى".[104]

ومن الأحاديث النبوية الدالة أيضا على المعنى الشمولي لتزكية النفس قول النبي ﷺ: "أَحَبُّ الناسِ إلى اللهِ أنفعُهم للناسِ، وأَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ سرورٌ تُدخِلُه على مسلمٍ، تَكشِفُ عنه كُربةً، أو تقضِي

[103]- **التفسير الوسيط**، **طنطاوي**، المرجع السابق، ج2، ص213.

[104]- **سبق تخريجه**.

عنه دَيْنًا، أو تَطرُدُ عنه جوعًا، ولأَنْ أمشيَ مع أخٍ في حاجةٍ؛ أَحَبُّ إليَّ من أن أعتكِفَ في هذا المسجدِ يعني: مسجدَ المدينةِ شهرًا، ومن كظم غيظَه ولو شاء أن يُمضِيَه أمضاه؛ ملأ اللهُ قلبَه يومَ القيامةِ رِضًا، ومن مشى مع أخيه في حاجةٍ حتى يَقضِيَها له؛ ثبَّتَ اللهُ قدمَيه يومَ تزولُ الأقدامُ".[105]

ومن الأحاديث النبوية كذلك؛ قول الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه: "من نفَّسَ عن مسلمٍ كُربةً مِن كُربِ الدُّنيا نفَّسَ اللَّهُ عنهُ كربةً مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومن يسَّرَ على مُعسرٍ في الدُّنيا يسَّرَ اللَّهُ عليهِ في الدُّنيا والآخرةِ، ومن سَترَ على مُسلمٍ في الدُّنيا سترَ اللَّهُ علَيهِ في الدُّنيا والآخرةِ، واللَّهُ في عونِ العَبدِ، ما كانَ العَبدُ في عونِ أخيهِ"[106]، إلى غيرها من الأحاديث النبوية الصحيحة. فلا معنى لتزكية النفس بالمفهوم الذاتي والفردي الضيق.

## وسائل تزكية النفس في القرآن الكريم

### 1- التوبة

مما لا ريب فيه، أن العبد لن يفلح في إصلاح نفسه وتزكيتها والأخذ بيدها الى بر الأمان، ما لم يتب الى الله عز وجل توبة نصوحا. قال تعالى:

---

[105]- **المعجم الأوسط**؛ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى، المحقق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد - أبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة، 1410 هـ - 1995 م. ج6، ص 139.

[106] - **سنن الترمذي**، الترمذي؛ محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت 279)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، الناشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصرالطبعة: الثانية، 1495 هـ - 1975 م. ج4، ص326

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾ (التحريم 8). وقال سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً اَيُّهَ ٱلْمُومِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور 31). وقال الحق سبحانه: ﴿وَأَنِ إِسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً﴾ (هود 3)، إلى غيرها من الآيات الواردة في التوبة. والتوبة هي رجوع العبد الى الله، كرجوع العبد الآبق الى سيده، وتتولد عن ألم الندم والحسرة على ما اقترفه من الذنوب والمعاصي.

قال العلامه محمد بن قيم الجوزية رحمه الله:

"ومنزل التوبة أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال الله تعالى وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي، إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم"[107].

ولما كان المسلم لا يسلم من الوقوع في المعاصي، بسبب الغفلة أو التقصير، وغير ذلك من الأسباب، لزمه الاستغفار في معظم أوقاته،

---

[107]- **مدارج السالكين**، المرجع السابق، ج 1، ص196.

ليتجدد الايمان في قلبه، وينال رضا الله ومغفرته، كما أن الشيطان لا يتوقف عن استعمال حبائله، ومكائده وطرقه الخبيثه للإيقاع به. ويصف العلامه الفقيه محمد بن القيم رحمه الله طريق التوبة قائلا:

"هلم الى الدخول الى الله ومجاورته في دار السلام، بلا نصب، ولا تعب، ولا عناء، بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين، وهو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يستقبل، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب، ولا معاناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب، وتمتنع، فيما يستقبل، من الذنوب، وامتناعك ترك وراحة، وليس هو عملا بالجوارح يشق عليك معاناته، وانما هو عزم ونية جازمة، تريح بدنك وقلبك وسرك، فما مضى تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب، ولمن الشأن في عمرك، وهو وقتك الذي بين الوقتين، فان أضعته أضعت سعادتك، ونجاتك، وان حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده، بما ذكر نجوت، وفزت بالراحة واللذة والنعيم. وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده، فان حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها، وأنفع لها وأعظم تحصيلا لسعادتها. وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت، فهي والله أيامك الخالية، التي تجمع فيها الزاد لمعادك، إما الى الجنة وإما الى النار. فان اتخذت إليها سبيلا الى ربك، بلغت السعادة العظمى، والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها الى الأبد، وإن آثرت الشهوات

والراحات، واللهو واللعب، انقضت عنك بسرعة، وأعقبتك الألم العظيم الدائم، الذي مقاساته ومعاناته، أشق وأصعب وأدوم، من معاناة الصبر عن محارم الله، والصبر على طاعته ومخالفة الهوى لأجله".[108]

رحمك الله يا فقيهنا الجليل، لقد أكرمك الله بما أنعم به عليك من العلوم، والمعارف، وطرائف الحكم المتعلقة بإصلاح النفس وتزكيتها، والأخذ بيدها إلى ساحل الأمان. ومنَّ عليك بإقامة الحجة، وصدق الكلمة، وصحة القول وصوابه. وكفاك فخرا ومنزلة عند الله، أن العلماء والباحثين وطلبة العلم، ما فتئوا ينهلون من الكنوز المعرفية المبثوثة في كتبك ومؤلفاتك النفيسة، وسيظلون على هذه الحال بحول الله، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والعلماء ورثة الأنبياء كما جاء في الحديث النبوي، فهنيئا لك ولنظرائك وأمثالك، و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُوتِيهِ مَن يَّشَآءُ﴾ (الجمعة 4).

## 2- المراقبة

المراقبة حال نفسي إيماني يحياه العبد ويستشعره، عندما يوقن بأن الله يعلم سره، ومطلع على نيته، ورقيب عليه في حله وترحاله، وجميع أحواله. قال سبحانه وتعالى: ﴿اعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ (البقره 233). وقال عز وجل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَےْءٍ رَّقِيباً﴾ (الاحزاب

108- **الفوائد**، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، دار الكتب العلمية – بيروت، 1393هج- 1973م، ص116.

52). وقوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ (غافر 19). وقال الحي القيوم: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ (العلق 11). والقرآن الكريم مليء بالآيات المبينة لعلم الله واطلاعه على أحوال عباده، وأعمالهم وما تخفي صدورهم. وفي حديث جبريل عليه السلام أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان، فقال له: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

ولا يخفى على المسلم الفطن أن استحضار مراقبة الله في القلب من أهم وسائل تربية النفس وإصلاحها وتزكيتها، ذلك لأن المسلم التقي عندما يستحضر مراقبة الله على الدوام، ينبعث من باطنه عنصر الخوف، الداعي الى اجتناب المنهيات والمعاصي، والإقبال على الطاعات وأعمال البر والخير، وذلك هو روح التزكية وجوهرها.

**3- المحاسبة**

إذا راقب العبد ربه في أقواله وأفعاله، أفضى به ذلك الى محاسبة نفسه ومعاتبتها. فالمحاسبة متولدة عن المراقبة. ومحاسبة الإنسان لنفسه تصدر من داخل قلبه، أي؛ من خوفه وقوه إيمانه، ومن استحضاره لمشهد القيامة يوم تنصب الموازين للحساب. قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰباً يَلْقَىٰهُ مَنشُوراً (13) ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (14)﴾ (الاسراء 13-14). وكلما داوم العبد على محاسبة نفسه ولومها على الغفلة والتقصير، قوي إيمانه، مما يعينه على اجتناب المنهيات والمحرمات، والاجتهاد في الطاعات، وإتقان العمل والإخلاص فيه، والقيام

بالواجبات. ومن الأدلة القرآنية على وجوب محاسبة النفس؛ قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ (الحشر 18).

**4- المجاهدة**

لا يخفى على المسلم الذي يروم إصلاح نفسه وتزكيتها، ما لمجاهدة النفس من أهميه وفوائد، ذلك أن أحوال التوبة، والمراقبة، والمحاسبة، لا تثبت وتستقر إلا بالمجاهدة؛ مجاهدة النفس من خلال الاجتهاد في القيام بأنواع الطاعات والقربات، ومعالجة شهواتها ورغباتها، استنادا الى توجيهات وضوابط الكتاب والسنة. ولا شك أن في مجاهدة النفس معاناة ومشقة، وأمور تستثقلها النفس، ويشق عليها القيام بها، لا سيما في بداية الطريق، لكن مع التسلح بالصبر، واللجوء إلى أسلوب الترغيب والترهيب، واستحضار الإرادة والعزم، تتدرج النفس في العمل والاجتهاد، وتذعن لأوامر ربها وخالقها، وذلك مع الاستعانة بالله والتوكل عليه. ومما يدل على مجاهده النفس في القرآن قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (العنكبوت 69).

قال الامام أبو محمد الحسين البغوي رحمه الله:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾، الَّذِينَ جَاهَدُوا الْمُشْرِكِينَ لِنُصْرَةِ دِينِنَا، ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ ، لَنُثَبِّتَنَّهُمْ عَلَى مَا قَاتَلُوا عَلَيْهِ، وَقِيلَ: لَنَزِيدَنَّهُمْ هُدًى كَمَا قَالَ : ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ (مريم 76)، وَقِيلَ: لَنُوَفِّقَنَّهُمْ لِإِصَابَةِ

الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ، والطرق المستقيمة هي التي توصل إِلَى رِضَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قال سفيان بن عيينة: إذا اختلف الناس فانظروا مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الثُّغُورِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وَقِيلَ: الْمُجَاهَدَةُ هِيَ الصَّبْرُ عَلَى الطَّاعَاتِ. قَالَ الْحَسَنُ: أَفْضَلُ الْجِهَادِ مُخَالَفَةُ الْهَوَى. وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ الْعَمَلِ بِهِ. وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي إِقَامَةِ السُّنَّةِ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ الْجَنَّةِ. وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَالَّذِينَ جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سُبُلَ ثَوَابِنَا. وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ، بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ فِي دُنْيَاهُمْ وبالثواب والمغفرة في عقباهم."[109]

وقال الامام القرطبي رحمه الله:

"قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي جاهدوا الكفار فينا. أي في طلب مرضاتنا. وقال السدي وغيره: إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال. قال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العرفي وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته. قال الحسن بن أبي الحسن: الآية في العباد. وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون وقد قال ﷺ: "من عمل بما علم علمه الله ما لم يعلم". ونزع بعض العلماء إلى قول: واتقوا الله ويعلمكم الله. وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا؛ تقصيرنا في العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علما لا تقوم به أبداننا. قال الله تعالى: واتقوا الله ويعلمكم الله. وقال أبو

---

109- **تفسير البغوي: "معالم التنزيل"**، المرجع السابق، ج3، ص568.

سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين، وعظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله وهو الجهاد الأكبر. وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: "لنهدينهم". وقال الضحاك: معنى الآية ؛ والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سبل الثبات على الإيمان. ثم قال: مثل السنة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى؛ من دخل الجنة في العقبى سلم كذلك من لزم السنة في الدنيا سلم. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا. وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال."[110]

يستفاد من كلام المفسرين، أن الجهاد المقصود في الآية؛ يشمل جهاد الكفار وجهاد النفس، أي؛ المجاهدة. وبين الجهاد والمجاهده خصوص وعموم مطلق، فالجهاد أخص من المجاهدة الأعم فكل جهاد مجاهدة، وليس كل مجاهدة جهاد، بمعنى القتال. وجهاد القتال في وقت دون وقت، بينما جهاد النفس في مطلق الأوقات. ولذا أطلق على مجاهدة النفس إسم الجهاد الأكبر، والله أعلم. ولقد أجمع العلماء على أن جهاد النفس فرض عين، وأن منزلته عظيمة، وأنه دأب الصحابة والتابعين، ومن اقتفى أثرهم واقتدى بهديهم. ولا يشك مسلم غيور على دينه أننا أحوج ما نكون الى هذا الجهاد، بعد ما قست القلوب بسبب الغفلة،

---

[110]- **تفسير القرطبي**، المرجع السابق، ج13، ص364.

واتباع الشهوات، والبعد عن الله. نسأل الله السلامة والثبات وحسن الخاتمة.

ولما كانت المجاهدة من الأمور التي تستثقلها النفس وتنفر منها، لكونها تضاد شهواتها وأهواءها، نبه الشرع الحكيم الى القيام بجملة من الأعمال والوسائل المعينة على تحقيقها. والتي من بينها ما يلي:

**قراءة القرآن تدبرا**

قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ اَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْاَلْبَٰبِ﴾ (سورة ص 29). وقال أيضا: ﴿اَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ إِخْتِلَٰفاً كَثِيراً﴾ (سورة النساء 81). وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ اَقْفَالُهَآ﴾ (سورة محمد 25). إلى غير ذلك من الآيات الدالة على التدبر والتأمل وإعمال العقل والفهم، وقراءة القرآن بلا تدبر كممارسة العبادة بلا فقه ولا خشوع.

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بنا ليلة، فقام بآية يرددها، وهي: ﴿ اِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[111]. وترديد الآيات أثناء القراءة أو في صلاة الليل، له أثر عميق في النفس، لكونه يفضي بصاحبه إلى التدبر والتأمل فتتحرر نفسه

[111]- **سنن ابن ماجه، ابن ماجة**؛ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت 273 )، تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي،دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، ج1، ص129.

من قفصها، وتنجذب إلى عوالم الآخرة والسكينة.

كما أن تدبر القرآن يبعث على تأمل وفهم دلالة الآيات على المقاصد التي يرشد المسلمين إليها، واستنباط المعاني واستخلاص العبر، وفي ذلك خير عظيم يجلبه لنفسه القارئ المتدبر والمتفهم لآيات الله. ولقد كان هذا دأب السلف الصالح ومنهجهم في التعامل مع القرآن، الذي انفعلت به نفوسهم، وتأثرت به قلوبهم، فظهر أثر ذلك على جوارحهم وفي أعمالهم الجليلة.

إن القرآن الكريم رحمة الله العظمى لعباده: "أنزله لنقرأه تدبرا، ونتأمله تبصرا، ونسعد به تذكرا، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه، ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحكم من بين رياضه وأزهاره، فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات، ورحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب وبابه الأعظم الذي منه الدخول، فلا يغلق إذا غلقت الأبواب، وهو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء، والذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء، والنزل الكريم الذي لا يشبع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، ولا تقلع سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولا تختلف دلالاته، كلما ازدادت البصائر فيه تأملا وتفكيرا، زادها هداية وتبصيرا، وكلما بجست معينه فجر لها ينابيع الحكمة تفجيرا، فهو نور البصائر من عماها،

وشفاء الصدور من أدوائها وجواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح، حي على الفلاح، نادى منادي الإيمان على رأس الصراط المستقيم ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم"[112].

ثم إن تدبر الحقائق العلوية للخطاب القرآني، واستشعار الحق واليقين الكامنين فيه، يستلزم تجريد النفس من خواطرها ووساوسها، والإنصات إلى لغة معانيه بروح سامية، وقلب مفعم بالصدق والإخلاص، متأهب لتلقي النفحات والإشراقات الربانية. وأهم الأسباب والدواعي المساعدة على ذلك ما يلي:

**1- حضور القلب أثناء التلاوة**، وهو أس هذا البناء وشرطه اللازم، إذ كيف يتصور جني ثمار التلاوة والقلب ساه أو غافل. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (سورة ق 37). ولكي يتم للعبد حضور القلب أثناء التلاوة، ينبغي له أن يجمع همته ويركزها في القصد المطلوب. وهذا أمر منطقي ومجرب؛ فإن الذي عقد العزم على إتيان أمر ما، أو القيام بمهمة معينة، واستفرغ لذلك وسعه، وبذل فيه جهده، لا بد أن يحصل له من التركيز فيما هو مشغول به، والانصراف عن كل ما يشوش عليه عمله. وعلى قدر محبته وتعظيمه لذلك الأمر ماديا كان أو معنويا، يتحرر باطنه من الوساوس والأفكار

---

[112]- **مدارج السالكين**، المرجع السابق، ج1، ص 27.

المثبطة، وصنوف من أحاديث النفس الجالبة للكسل والوهن، والمسببة في الإعراض عن القيام بجلائل الأعمال. وإذا كان التركيز وجمع الهمة في أمر دنيوي ابتغاء تحقيقه ونيله يفضي في غالب الأحيان إلى الغرض المقصود، فمن باب أولى أن يؤدي هذا الشرط إلى الغرض المرجو إذا تعلق الأمر بقراءة القرآن.

وغني عن البيان أن الذي يقبل على قراءة الذكر الحكيم بشغف وهمة ووقار، مع تعظيم للرب وإخلاص الدين له، وصدق لهجة المناجاة من خلال الترتيل، يجد من اللذة الروحية ما يعجز عن وصفه الواصفون.

**2-الخشوع**؛ ثم إن حضور القلب ينتج عنه الخشوع، وذلك بطريقة تلقائية، فمن حضر قلبه خشع. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (سورة الحديد 15). وقال أيضا: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (سورة الزمر 23).

والخشوع يجعل قلب المسلم يذل ويخضع لخالقه، كما تلين جوارحه لطاعته، وبذلك يغدو باطنه محلا لتنزل الرحمات، وورود الإشراقات والنفحات الإلهية. ثم إن اللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتحا لتلقي قبسا من حقيقة القرآن، يهتز فيها اهتزازا ويرتجف ارتجافا، ويقع فيه من التغيرات والتحولات ما يمثله في علم المادة فعل المغناطيس والكهرباء بالأجسام أو أشد. والذين أحسوا شيئا من مس القرآن في

كيانهم، يتذوقون هذه الحقيقة تذوقا لا يخطر على بال غافل، ولا يرقى إليه عقل جاهل.

ثم إن الآيات القرآنية تتأرجح في صورها ومشاهدها بين الوعد والوعيد، محدثة بذلك توازنا وطمأنينة في باطن المسلم. ولولا ذلك لما كان في مقدوره أن يحافظ على سكينته النفسية، ومن هنا فإن الآيات المعبرة عن مشاهد النعيم، تخفف من وطأة الخشوع والخوف الناتجين عن التأمل، والتمعن في الآيات المعبرة عن مشاهد العذاب وأهوال القيامة.

وإذا تعود المؤمن استحضار قلبه والتحلي بحلية الخشوع أثناء تلاوة القرآن، فقد أذن لنفسه في ولوج عالم التدبر، وهو فضاء معنوي فسيح لا يتوقف عن الاتساع بفضل إمدادات حالتي الحضور والخشوع، وترى العبد يسبح في أرجائه ممتطيا معاني الآيات، منتهلا من حروف "إقرأ"، "وفي ذلك فليتنافس المتنافسون". تارة تعتريه الدهشة والحيرة من شدة الأنوار الساطعة من أصل تلك الحروف وما تحمله من إيحاءات ربانية متلألئة، وتارة أخرى ينجذب إلى صلصاله الطيني حتى لايزيغ عن دورته الفلكية، أويحمله هيمانه إلى عالم قد يكون فيه حتفه كما لأصحاب الحلول ووحدة الوجود من الصوفية، وحتى يعرف أن التحقق بالعبودية الحقة، يستلزم القيام بواجبات الاستخلاف وتطبيق شريعة الله.

قال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله: "ومما انفرد به القرآن وباين سائر الكلام، أنه لايخلق على كثرة الرد وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة؛ وكلما أخذت فيه على وجهه الصحيح فلم تخل بأدائه،

رأيته غضا طريا، وجديدا مونقا، وصادفت من نفسك له نشاطا مستأنفا وحسا موفورا، وهذا أمر يستوي في أصله العالم الذي يتذوق الحروف ويستمري تركيبها ويمعن في لذة نفسه من ذلك، والجاهل الذي يقرأ ولا يثبت معه من الكلام إلا أصوات الحروف، وإلا ما يميزه من أجراسها على مقدار ما يكون من صفاء حسه ورقة نفسه. وهو لعمر الله أمر يوسع فكر العاقل ويملأ صدر المفكر، ولا نرى جهة تعليله ولانصحح منه تفسيرا، إلا ما قدمنا من إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية، وتساوق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم، بالهمس والحس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها، ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطا وإيجازا، وإفرادا وتكريرا".[113]

### 3- الذكر

الذكر عبادة عظيمة من أهم عبادات القلب واللسان. وتتميز هذه العبادة عن غيرها بكونها غير مقيدة بأوقات معينة، حيث أن الذاكر قد يجعل جل أوقاته ذكرا، مهما كانت أحواله وأوضاعه. وبالذكر يتزود السائرون إلى الله، المشتاقون لرؤيته ولجنانه. والذكر من أقوى أسلحة المؤمن في مواجهة المشكلات والأزمات، والصبر على الفتن والابتلاءات والمحن. كما أنه نعم المعين على دفع الهموم وتفريج الكرب. قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ

113- **"إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"**، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990/1410، ص 218.

وَأَصِيلًا (42)﴾ (الأحزاب 41-42). وقال عز وجل: ﴿اَلذِينَ يَذْكُرُونَ اَللَّهَ قِيَٰماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِے خَلْقِ اِ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِۖ﴾ (آل عمران 191) إلى غيرها من الآيات البينات المتعلقة بذكر الله. وقال رسول الله ﷺ: "سبق المفردون"، قيل: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: "الذاكرون الله كثيرا والذاكرات".[114] وأشار نبينا عليه الصلاة والسلام، إلى أهمية دوام الذكر وجريانه على لسان الذاكر، بقوله: "لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله".[115]

وعندما يداوم العبد على ذكر الله، مع اليقظة وحضور القلب وشهوده، فإنه يكون في مأمن من نسيانه الذي هو علة شقائه وتعاسته في الدنيا والآخرة. قال الحق سبحانه: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالذِينَ نَسُواْ اُ۬للَّهَ فَأَنسِيٰهُمُۥٓ أَنفُسَهُمُۥٓۖ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ اُ۬لْفَٰسِقُونَۖ﴾ (الحشر 19). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ؛ ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً، تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً ؛ تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي؛ أتيته هرولة."[116]

والخلاصة أن ذكر الله سبحانه من أنفع ما يستعين به العبد على تربية نفسه وإصلاحها وتزكيتها، والترقي بها في الدرجات، ذلك لأن الذكر

---

[114]- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص62.

[115]- **سنن الترمذي**، المرجع السابق، ج5، ص157.

[116]- **متفق عليه.**

يذيب قسوة القلب، ويقوي المجاهدة، ويجلب محبة الله، ويُعبِّد طريق التوبة والإنابة والتقوى.

**4- قيام الليل**

ما أقسم الله عز وجل في كتابه بشيء من مخلوقاته، إلا وله شأن جليل في عالم الخلق. فلا شك أن الليل وقد أقسم الله به في أكثر من آية ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ (سورة الضحى 2)، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ (سورة الفجر 4)، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ (سورة الليل 1)، يحتوي على أسرار لا يعلم عددها وكنهها إلا الله.

ثم إنه كثيرا ما ذكر الليل في القرآن مقترنا بلفظ له علاقة بالسكون؛ ﴿هُوَ ٱلذِے جَعَلَ لَكُمُ ٱليْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ (سورة يونس 67)، ﴿فَالِقُ ٱلِاصْبَاحِ وَجَاعِلُ ٱليْلِ سَكَناً﴾ (سورة الأنعام 97). وهذا يدل على مدى لطف الله وعنايته بالإنسان، الذي يجد راحته في السبات بعد كدحه طول النهار. إذ لو كان الوقت كله نهارا لتعذرت الحياة.

غير أن المعنى الروحي لحالة للسكون الليلي، هو المشار إليه والله أعلم، في تلك الآيات، خصوصا إذا ما لوحظ مضمون كلمات مستعملة في النص القرآني مثل يسكن، سكن، أو سكينة ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (سورة الأعراف 189)، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمُۥٓ إِنَّ صَلَوٰتِكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (سورة التوبة 104)، ﴿هُوَ ٱلذِے أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِے قُلُوبِ ٱلْمُومِنِينَ﴾ (سورة الفتح 4).

إن السكون في عالم المادة يعبر عما يناقض الحركة، وفي عالم النفس يعكس الطمأنينة والرجوع إلى الأصل، وإن الأرواح قبل الهبوط، لم تعرف الاضطراب لكونها كانت في عالم الثبات. فالسكون صفة أصلية لها، والاضطراب صفة عرضية. وحنين الإنسان إلى الليل كي يجد الراحة، لا ينفصل عن حنين نفسه إلى ذلك الليل حيث تسكن فيه بسكونها إلى أصلها. ويساعد النفس على ذلك تحررها من قيود الحواس أثناء النوم. فبعد أن كانت سجينة حواسها خلال النهار، قدم الليل بسباته وأزاح عنها القيود ومكنها من شيء من الطمأنينة.

ثم إن الإنسان لو لم يكن في سكون الليل أقرب إلى حقيقته وإلى معرفة نفسه، لما أكد سبحانه على أهمية قيام الليل؛ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ (سورة الإنسان 26)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة المزمل 1)، ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (سورة المزمل 5). ذلك أن الانقطاع عن شواغل الحياة اليومية وضجيجها، والتوجه إلى الله بقلب فارغ في سكون الليل، يخول للعبد أن يتدبر، ويحيا لحظات روحية عميقة تجعله في اتصال قوي ومباشر بحقيقته.

والنهار مسرح جلي لظهور آثار الأسماء الإلهية. والإنسان سواء شعر أم لم يشعر، يظل خلال النهار في انتقال متواصل من حال إلى حال، نتيجة تنوع آثار تلك الأسماء، ونتيجة معاينته لعدد من آيات الله عز وجل. فالمؤمن إذا وقع بصره مثلا على أمر تتجلى فيه الرحمة ذكره بالرحمن، وإن كان القهر متجليا في ذلك الأمر، ذكره بالقهار. وهكذا فإن

قلبه دائما معلق بالله، وكل شيء يذكره به وبأسمائه وصفاته.

وتلك الآثار لا تفتأ واقعة على الإنسان، كما أن لطفها به وشدتها عليه، يختلفان بحسب وضعه الإيماني ومنزلته عند الله. ومهما يكن من أمر فالمعاناة والمكابدة لا محيص للإنسان عنهما؛ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ (سورة البلد 4). أما الليل، فإن هدوءه وسكونه أجلب للسكينة والطمأنينة، وأنفع للعبادة. فلما خيم بظلامه على المخلوقات، وسرت فيها آيته خشعت وسكنت، وحل الثبات محل الحركة، وخفت وطأة المكابدة، وذب في نفوس المؤمنين حنين الرجوع، فأقبلوا بوجوههم على الله، وفي الحديث: "ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول ؛ من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟"[117].

إن قيام الليل هو دأب الصالحين، وتجارة المؤمنين، وعمل الفائزين، ففي الليل يخلو المؤمنون بربهم، ويتوجهون إلى خالقهم وبارئهم، فيشكون إليه أحوالهم، ويسألونه من فضله، فنفوسهم قائمة بين يدي خالقها، عاكفة على مناجاة بارئها، تتنسم من تلك النفحات، وتقتبس من أنوار تلك القربات، وترغب وتتضرع إلى عظيم العطايا والهبات.

قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ (السجدة 16). قال مجاهد والحسن: يعني قيام الليل.

---

117- متفق عليه.

وقال ابن كثير في تفسيره: "يعني بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة".

وقال عبد الحق الأشبيلي: " أي تنبو جنوبهم عن الفرش، فلا تستقر عليها، ولا تثبت فيها لخوف الوعيد، ورجاء الموعود ".

وقد ذكر الله عز وجل المتهجدين فقال عنهم: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) ﴾ (سورة الذاريات 17-18)، قال الحسن: كابدوا الليل، ومدّوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا في الدعاء والاستكانة والاستغفار.

وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر10). أي: هل يستوي من هذه صفته مع من نام ليله وضيّع نفسه، غير عالم بوعد ربه ولا بوعيده؟!

ولقد حث النبي على قيام الليل ورغّب فيه، فقال عليه الصلاة والسلام: "عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد".[118]

وقال النبي ﷺ في شأن عبد الله بن عمر: " نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل"[119]. قال سالم بن عبد الله بن عمر: فكان عبد الله

[118]- **سنن الترمذي**، المرجع السابق، ج5، ص553

[119]- **متفق عليه.**

بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً.

وقال أيضا: " أتاني جبريل فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس ".[120]

وقال نبينا صلوات الله وسلامه عليه: " من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين"[121]. والمقنطرون هم الذين لهم قنطار من الأجر.

وذكر عند النبي ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح فقال: " ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه !!"[122]

وقال ﷺ: " أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل".[123]

ومن الأسباب والدواعي المعينة على قيام الليل، ما يلي:

- ألا يكثر العبد من الأكل والشرب، فيستثقل قيام الليل.
- أن يجتنب التعب خلال النهار ما استطاع إلى ذلك سبيلا.
- أن يكون حريصا على أخذ قسط من القيلولة بالنهار.
- أن يحفظ نفسه من الوقوع في المعاصي والذنوب.

---

[120] - **الترغيب والترهيب، المنذري**، المرجع السابق، ج1، ص333

[121]- **سنن أبي داود**، المرجع السابق، ج2، ص57.

[122]- **متفق عليه.**

[123]- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج1، ص537.

- أن يجتنب البدع، ويعرض عن اللغو وفضول الكلام.
- أن يُلزِم قلبه خوف الله وتقواه.

الفصل الرابع

# الذكر في القرآن الكريم

الذكر لغة واصطلاحا

آيات الذكر

الذكر في السنة النبوية

أقوال السلف في الذكر

الذكر في القرآن الكريم

أمر الله بالذكر

ذكر الله يقوي القلب ويثبته

تلازم الذكر والإرادة المثلى

استصحاب الذكر حالا ومقالا

فوائد الذكر وفضائله

الذكر عبادة توقيفية

# الذكر في القرآن الكريم

## الذكر لغة واصطلاحا

معنى الذكر لغة:

الذكر بالكسر خلاف النسيان وكذا التذكرة، وقولهم: اجعله منك على ذكر، وذكر بمعنى الذكر الصيت والغناء، وذكرت الشيء بعد النسيان، وذكرته بلساني وبقلبي، وتذكرته[124].

ويأتي لمعان:

أ- الشيء يجري على اللسان، أي: ما ينطق به، يقال: ذكرت الشيء أذكره ذِكرا وذُكرًا إذا نطقت باسمه أو تحدَّثت عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (مريم 2).

ب- استحضار الشيء في القلب، ضد النسيان، قال تعالى حكاية عن فتى موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ (الكهف 63).

قال الراغب الأصفهاني: "الذكر: تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يُمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه، والذكر يقال اعتبارا باستحضاره، وتارة

---

124 - **تهذيب الأسماء واللغات**؛ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ج3، ص111.

يقال لحضور الشيءِ القلبَ أو القولَ، ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللسان. وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، ذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ".[125]

ويطلق الذكر على أمور كثيرة، ومنها ما نقله القاضي عياض عن الحربي أنه قال: "للذكر ستة عشر وجها: الطاعة، وذكر اللسان، وذكر القلب، والإخبار، والحفظ، والعظمة، والشرف، والخير، والوحي، والقرآن، والتوراة، واللوح المحفوظ، واللسان، والتفكر، والصلوات، وصلاة واحدة"، وزاد القاضي عياض أيضا فقال: "وقد جاء بمعنى التوبة، وبمعنى الغيب، وبمعنى الخطبة".[126]

والذكر شرعا له معنيان:

أ- معنى عام: ويشمل كل أنواع العبادات؛ من صلاة، وصيام، وحج، وقراءة القرآن، وثناء ودعاء، وتسبيح، وتحميد، وتمجيد، وغير ذلك من أنواع الطاعات؛ لأنها إنما تقام لذكر الله، وطاعته وعبادته.

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله: "كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرِّب إلى الله من تعلّم علم وتعليمه، وأمر بمعروف

---

[125]- **المفردات في غريب القرآن**، الأصفهاني؛ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت 502)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط1، 1412، ص328.

[126] - **مشارق الأنوارعلى صحاح الآثار**؛ القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي المالكي، الناشر: المطبعة المولوية، فاس – المغرب1333هـ، ج1، ص269.

ونهي عن منكر، فهو من ذكر الله"[127].

ب- معنى خاص: وهو ذكر الله بالألفاظ التي وردت عن الله سبحانه وتعالى، من تلاوة كتابه، أو إجراء أسمائه أو صفاته العليا على لسان العبد أو قلبه، مما ورد في كتاب الله سبحانه، أو الألفاظ التي وردت على لسان رسوله ﷺ، المتعلقة بذكر الله من تهليل وتسبيح واستغفار، إلخ.

**آيات الذكر**

وردت مادة "ذكر" في القرآن الكريم في أكثر من مئتي آية، منها قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَالْيَوْمَ ٱلآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: 21).

وقال الحي القيوم: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: 152).

وقال العليم الحكيم: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيّ وَالإِبْكَٰرِ﴾ (آل عمران: 41)

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾ (الأعراف: 205).

وقال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: 45).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42)﴾ (الأحزاب: 41-42)

[127] - **مجموع الفتاوى**؛ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية،جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله وساعده: ابنه محمد وفقه الله، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة السعودية، عام النشر: 1425 هـ - 2004 م، ج10، ص561

وقال تعالى: ﴿وَالذَّٰكِرِينَ اَ۬للَّهَ كَثِيراٗ وَالذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ اَ۬للَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةٗ وَأَجْراً عَظِيماٗۖ﴾ (الأحزاب: 35).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اُ۬للَّهَ كَذِكْرِكُمُۥٓ ءَابَآءَكُمُۥٓ أَوَ اَشَدَّ ذِكْراٗۖ فَمِنَ اَ۬لنَّاسِ مَنْ يَّقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِے اِ۬لدُّنْيا وَمَا لَهُۥ فِے اِ۬لَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٖۖ وَمِنْهُم مَّنْ يَّقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِے اِ۬لدُّنْيا حَسَنَةٗ وَفِے اِ۬لَاخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ اَ۬لنّ۪ارِۖ (199) اُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۖ وَاللَّهُ سَرِيعُ اُ۬لْحِسَابِۖ (200)﴾ (البقرة: 198: 200).

وقال تعالى : ﴿وَاذْكُرِ اِسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلِ اِلَيْهِ تَبْتِيلاٗۖ﴾ (المزمل: 7).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اَ۬للَّهُ وَحْدَهُ اُ۪شْمَأَزَّتْ قُلُوبُ اُ۬لذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ اَ۬لذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَۖ﴾ (الزمر 42).

وقال تعالى: ﴿إِلاَّ اَ۬لذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ اُ۬لصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ اُ۬للَّهَ كَثِيراٗ﴾ (الشعراء 226).

وقال تعالى: ﴿فِے بُيُوتٍ اَذِنَ اَ۬للَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اَ۪سْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالَاصَالِ﴾ (النور 36).

وقال تعالى: ﴿اِنَّ فِے خَلْقِ اِ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ وَاخْتِلَٰفِ اِ۬ليْلِ وَالنَّهارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِے اِ۬لَالْبَٰبِ (190) اِ۬لذِينَ يَذْكُرُونَ اَ۬للَّهَ قِيَٰماٗ وَقُعُوداٗ وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: 190: 191).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ اُ۬لصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُواْ اُ۬للَّهَ قِيَٰماٗ وَقُعُوداٗ وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۖ﴾ (النساء: 103).

وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ (النور: 37).

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (المنافقون: 9).

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (14) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ (15)﴾ (الأعلى 14-15).

وقال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ (الحج 26).

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ (آل عمران 41).

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا۟ وَاذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأنفال 45).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال 2).

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد 28).

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الزمر 22).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف 35).

وقال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ (المجادلة 19).

وقال تعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (النساء 142).

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144)﴾ (الصافات 143-144).

وقال تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ (طه 14).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف 201).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ﴾ (آل عمران 135).

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الإنسان 25).

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (الكهف 24).

إلى غيرها من الآيات البينات المتعلقة بذكر الله عز وجل. جعلنا الله والمسلمين أجمعين من المداومين على ذكره وحمده وشكره.

## الذكر في السنة النبوية

تشتمل السنة النبوية على عشرات الأحاديث التي تتناول موضوع الذكر وفضائله، وثمراته، ومنزلة الذاكرين، وما يعدهم الله به من ثواب وجزاء ونعم في الدنيا والآخرة.

والأحاديث في فضل ذكر الله كثيرةٌ وعظيمةٌ، وقد جاء فيها تقديم ذكر الله عز وجل على سائر النوافل من الطاعات والعبادات، فسبق الذاكرون الله كثيرا والذاكرات، من سواهم بنصِّ حديث رسول الله ﷺ، حتى جهاد النفل في سبيل الله، وما ذاك إلَّا لتعلق قلب الذاكر بربِّه وعبوديَّته له.

فعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:"مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره، مثل الحي والميت"[128]

عن عبد الله بن بُسْر، - رضي الله عنه -، أنَّ رجلاً قالَ: يا رسول الله إنَّ شرائع الإسلام قد كثرتْ عليّ فأخبرني بشيء أتشبث به، فقال: "لا يزال لسانك رطباً من ذكر اللَّهِ تَعالى".[129]

عن أبي هريرة، قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكَّة فمرَّ على جبلٍ يقال له جمدان، فقال: "سيروا هذا جمدان سبق المفردون، قالوا: وما المفردون؟ يا رسول الله، قال: الذاكرون الله كثيرا، والذاكرات".[130]

---

[128]- **متفق عليه.**

[129]- **سنن الترمذي**، المرجع السابق، ج5، ص157.

130- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص62.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:"ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله تعالى".[131]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سبحان الله العظيم".[132]

وعن السيدة جويرية رضي الله عنها أنّ النبيَّ ﷺ خرج من عندها بُكرة حين صلَّى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة فيه، فقال: "ما زلت اليوم على الحالة التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم، فقال النبي ﷺ: لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته".[133]

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنّا عند رسول الله ﷺ فقال: "أيعجز أحدكم أن يكسب في كل يوم ألف حسنة؟ فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب ألف حسنة؟ قال: يسبح مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة".[134]

---

131- **سنن الترمذي**، المرجع السابق، ج5، ص159.

132- **صحيح البخاري**، المرجع السابق، ج8، ص86.

133-**صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص90.

[134]- **صحيح مسلم**، المرجع السابق، ج4، ص73.

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه- عن النبيِّ ﷺ قال: "من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير عشر مرات، كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل".[135]

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: "من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شئ قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه، وقال: ومن قال سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة، حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر".[136]

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال لي النبيُّ ﷺ: "ألا أدلّك على كنز من كنوز الجنة؟ فقلت: بلى يا رسول الله، قال: قل: لا حول ولا قوة إلا بالله".[137]

## بعض أقوال السلف في الذكر

قال سعيد بن جبير: "الذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر له، وإن كثر منه التسبيح وتلاوة القرآن".[138]

---

135- **صحيح مسلم،** " " ج4، ص71

136-**صحيح البخاري**، المرجع السابق، ج8،ص85

137-**صحيح البخاري،** " " ج8، ص82.

138- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، المرجع السابق، ج4، ص276.

وقال الحافظ ابن رجب: "الأعمال كلها يفرغ منها، والذكر لا فرغ له ولا انقضاء، والأعمال تنقطع بانقطاع الدنيا، ولا يبقى منها شيء في الآخرة، والذكر لا ينقطع. المؤمن يعيش على الذكر ويموت عليه، وعليه يبعث"[139].

وقال جعفر بن محمد الصادق: "إذا جاءك ما تحب فأكثر من الحمد لله، وإذا جاءك ما تكره، فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار".[140]

## الذكرفي القرآن الكريم

إن مادة "ذكر"، أطلقت في القرآن، بمختلف صيغها الإسمية والفعلية، على معاني متعددة، منها؛ ذكر الله، في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42)﴾ (الأحزاب 42-43). ومنها ما يفيد معنى التذكير؛ في مثل قوله عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَّخَافُ وَعِيدِ﴾ ( ق 45). ومنها ما يفيد معنى التذكر؛ في مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ إتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ (الأعراف 201). ومنها ما يشير إلى كتاب الله؛ في مثل قوله عز وجل: ﴿إِنَّانَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر 9). ومنها ما يفيد البيان؛ قال العزيز الحكيم: ﴿صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِے ٱلذِّكْرِ﴾ (ص 1)؛ يعني ذي بيان.

139 - **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**؛ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004 م، ص292.

140- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، المرجع السابق، ج3، ص196.

وأطلق الذكر على صلاة الجمعة؛ قال الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ (الجمعة 9). إلى غير ذلك من المعاني الجليلة المتعلقة بمادة "ذكر" في كتاب الله العزيز. وسأقتصر في هذا الموضوع على الحديث عن المعنى الأول، أي؛ ذكر الله عز وجل. وهو المعنى المحوري المستقطب لكل معاني الذكر الواردة في القرآن الكريم، وذلك من خلال أربعة محاور وهي: أمر الله بالذكر، وذكر الله يقوي القلب ويثبته، وتلازم الذكر والإرادة المثلى، واستصحاب الذكر حالا ومقالا.

### 1- أمر الله بالذكر

لما كان ذكر الله من لوازم العبودية ومقتضياتها، أمر الله عباده به، وحثهم عليه، وذلك في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ (آل عمران 41)، وقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ (النساء 103)، وقوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ (الأنفال 45)، وقوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا (42)﴾ (الأحزاب 41-42).

قال المفسر أبو محمد الحسين البغوي رحمه الله: "قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ ؛ قال ابن عباس: لم يفرض الله تعالى فريضة إلا جعل لها حدًا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال العذر،

أما الذكر فإنه لم يجعل له حدًا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله وأمرهم به في كل الأحوال، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ (النساء 103)، وقال: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، أي: بالليل والنهار، في البر والبحر وفي الصحة والسقم، وفي السر والعلانية. وقال مجاهد: الذكر الكثير أن لا تنساه أبدًا."[141]

وجاء في كتاب "جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام" للفقيه محمد بن قيم الجوزية رحمه الله ما نصه: "إن دوام الذكر لما كان سببًا لدوام المحبة، وكان الله سبحانه أحق بكمال الحب، والعبودية، والتعظيم، والإجلال، كان كثرة ذكره من أنفع ما للعبد، وكان عدوّه حقًا هو الصادّ عن ذكر ربه وعبوديته، ولهذا أمر سبحانه بكثرة ذكره في القرآن، وجعله سببًا للفلاح، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال 45).[142]

## 2- ذكر الله يقوي القلب ويثبته

إن الإنسان خلق ضعيفًا، لا يقوى على حماية نفسه من كل ما يداهمه من المصائب والشدائد، وسرعان ما تضيق نفسه خوفًا، وجزعًا،

---

[141]- **معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي**؛ محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت 510)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت

ط1، 1420 هـ، ج3، ص547.

[142]- **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار العروبة – الكويت الطبعة: الثانية، 1407-1987، ص 450.

عندما تنزل به مصيبة من المصائب، إلا أن الله الذي ابتلاه، أمره بذكره، واللجوء إليه، والاستغاثة به، كي ينقذه ويفرج كربته. وليس أنفع للعبد الخائف الوجل من الإكثار من ذكر الله سبحانه، لأن ذكره في مثل هذه المواطن يجلب الأمن والطمأنينة لقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد 28).

وقال الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال 45). قال المفسر القرطبي رحمه الله:

"قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً أى جماعة فَاثْبُتُوا﴾؛ أمر بالثبات عند قتال الكفار، كما في الآية قبلها النهي عن الفرار عنهم، فالتقى الأمر والنهي على سواء. وهذا تأكيد على الوقوف للعدو والتجلد له. قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال:

الأول: اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد.

الثاني: اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بألسنتكم، فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب باللسان، فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس.

الثالث: اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم وما منته لكم.

قلت: والأظهر أن هذا ذكر اللسان الموافق للجنان. قال محمد بن كعب القرظي: لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا، يقول الله عز وجل: ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾. ولرخص للرجل يكون في الحرب، يقول الله عز وجل: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾. وقال قتادة: افترض الله جل وعز ذكره على عباده، أشغل ما يكونون عند الضراب بالسيوف. وحكم هذا الذكر أن يكون خفيًا، لأن رفع الصوت في مواطن القتال رديء مكروه إذا كان الذاكر واحدًا. فأما إذا كان من الجميع عند الحملة فحسن لأنه يفت في أعضاد العدو. وروى أبو داود عن قيس بن عباد قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصوت عند القتال. وروى أبو بردة عن أبيه عن النبي ﷺ مثل ذلك. قال ابن عباس: يكره التلثم عند القتال. قال ابن عطية: وبهذا والله أعلم استن المرابطون بطرحه عند القتال على صيانتهم به".[143]

### 3- تلازم الذكر والإرادة المثلى

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ (الأعراف 201). قال المفسر البغوي رحمه الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ

[143]-تفسير القرطبي، المرجع السابق، ج8، ص23.

وَالْكِسَائِيُّ: طَيْفٌ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ طَائِفَةٌ بِالْمَدِّ وَالْهَمْزِ وَهُمَا لُغَتَانِ كَالْمَيِّتِ وَالْمَائِتِ، وَمَعْنَاهُمَا: الشَّيْءُ يُلِمُّ بِكَ. وَفَرَّقَ قَوْمٌ بَيْنَهُمَا، فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: الطَّائِفُ مَا يَطُوفُ حَوْلَ الشَّيْءِ، وَالطَّيْفُ: اللَّمَّةُ وَالْوَسْوَسَةُ. وَقِيلَ: الطَّائِفُ مَا يَطُوفُ بِكَ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ، وَالطَّيْفُ: اللَّمَمُ وَالْمَسُّ. تَذَكَّرُوا عَرَفُوا، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الرَّجُلُ يَغْضَبُ الْغَضْبَةَ فَيَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى فَيَكْظِمُ الْغَيْظَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الرَّجُلُ يَهِمُّ بِالذَّنْبِ فَيَذْكُرُ اللَّهَ فَيَدَعُهُ. فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ، أَيْ: يُبَصِرُونَ مَوَاقِعَ خَطَايَاهُمْ بِالتَّذَكُّرِ وَالتَّفَكُّرِ. قَالَ السُّدِّيُّ: إِذَا زَلُّوا تَابُوا. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: إِنَّ الْمُتَّقِي إِذَا أَصَابَهُ نَزْغٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرَ وَعَرَفَ أَنَّهُ مَعْصِيَةٌ، فَأَبْصَرَ فَنَزَعَ عَنْ مُخَالَفَةِ اللَّهِ"[144].

لقد جاء ذكر الشيطان في آيات وأحاديث كثيرة. كما حذرنا الله سبحانه وتعالى من اتباعه، واتخاذه وليًا من دونه. وأمرنا رسولنا الكريم صلوات الله وسلامة عليه وعلى آله، باجتناب طريقه، وتوقي مجالسه، وسد الطرق والمسالك التي يسلكها للوصول إلى القلوب.

وفي معرض الحديث عن طبيعة الشيطان وأعماله وأهدافه، أشار القرآن الكريم إلى أن هذا اللعين له القدرة على التأثير في الإنسان وإغوائه وإفساده وإضلاله؛ قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ (سورة النمل، 24). وقال أيضًا: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ (سورة المجادلة، 19). وقال في سورة مريم، آية 83: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾، إلى غير ذلك من الآيات

[144]- **تفسير البغوي**، المرجع السابق، ج2، ص262.

القرآنية الدالة على كيد الشيطان للإنسان، وإيراده المهالك، وإبعاده عن الصراط المستقيم.

إن الله سبحانه وتعالى قد خول إبليس وجنوده من الشياطين قوة كبيرة، وأمدهم بأسباب يستطيعون بها ومن خلالها إفساد البشر وإضلالهم. قال رب العزة: ﴿فَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (15) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف، 16-17). لكن ليس معنى هذا أن الشيطان يضل ويفسد ويغوي من يشاء ومتى شاء، وإنما يفعل ذلك بمن هو مهيأ نفسيًا وعقديًا وسلوكيًا، لتلقي إيحاءات الشيطان وإغراءاته ووساوسه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر 42). وقال أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ (الأعراف؛ 201-202)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف؛ 36)، إلى غيرها من الآيات.

"وتأمل حكمة القرآن وجلالته، كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس (...) وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية، فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله، فيصوره

لنفسه ويمنيه ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها ويخيله له فيخيل تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهي، وينسي علمه بضررها ويطوي عنه سوء عاقبتها فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب فيبعث الشيطان معهم مددًا له ومعونة... قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[145].

وعندما يجد الشيطان أسوار الحصن متينة وأبوابها موصدة، يعجز عن الكيد وإلحاق الأذى بالعبد، بينما إذا كانت الأسوار مليئة بالثلم والثقوب، أو الأبواب مفتوحة على مصراعيها، فإنه يندفع إلى الداخل اندفاع السيل الجارف، ويشرع في الإفساد والهدم والتخريب. والإنسان الذي ينحرف عن سنن الفطرة، ويعرض عن تعاليم ربه المبينة في الكتاب والسنة، ويلقي بنفسه في مستنقع الشهوات والرذائل، والأهواء النفسية، يضعف إرادته الشخصية ويدعو الشيطان لكي يبسط سلطانه عليه، ويأخذ بناصيته ويقوده ويوجهه أنى شاء.

إن التلازم والتكامل والتعاضد بين الذكر والإرادة المثلى عند المؤمن الذاكر، يجعله مستوعبًا لمفهوم الذكر ومتمثلاً له في إطاره الشمولي، بحيث يؤدي هذا الاستيعاب والتمثل، إلى تربع الإرادة القوية والهادفة

---

[145] - **بدائع الفوائد**؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت.، ج2، ص257.

والملتزمة على عرش قلبه وعقله، فيغدو بذلك مثالًا للمسلم الذاكر المريد. كما أن أنوار الذكر الشرعي اللساني والقلبي، عندما تنفذ إلى قلب المسلم وتضيء أرجاءه، تعمل في الوقت نفسه على تربية النفس الشهوانية وتزكيتها، وتحويل صفاتها الذميمة من كبر، وعجب، وحسد، ورياء، وجهل، إلى أضدادها من تواضع، ومحبة وإخلاص، وتعلم، فتنقشع غيوم النفس الأمارة، وتأخذ حجبها في التلاشي، فترفع موانع المعرفة، وتفتح أبواب التلقي والتعلم بعد أن كانت موصدة. وكما أن دخول ميدان الذكر، والترقي في مراتبه على المنهج النبوي وسنة الصحابة الأطهار، يفضي بالمسلم إلى عالم المعرفة الحقة، بعد التسلح بالإرادة الصحيحة والهادفة، فإن ركوب بحر الجهالة والغفلة يجعل الإنسان أشبه ما يكون بالحيوان المتوحش بل أضل سبيلاً.

ولما كان حال النفس الذاكرة كما ذكرت آنفًا، كانت حال النفس الغافلة بخلاف ذلك خائرة القوة، مسلوبة الإرادة، يغلب عليها الخوف والقلق إذا حل بها مكروه. ذلك أن الإنسان حين يغفل عن ذكر الله سبحانه، فإنه ينتقل تلقائيًا إلى ذكر ما سواه، فينتقل من التوحيد إلى الصنمية؛ حيث ينسب الفاعلية والتأثير إلى الأصنام التي يقيمها أو يتوهمها، فتضطرب بذلك معتقداته، ويتمزق ولاؤه، وتتناثر شخصيته، ولا ينقذه من هذا التمزق والاضطراب إلا التوبة والعودة إلى ذكر الله عز وجل. وهكذا فإن الذكر الحقيقي والشامل يهدف أولاً وقبل كل شيء، إلى تنمية قوى الإرادة التي تتجسد عمليًا في محبة الله وخشيته ورجائه، لأن

محبة الله تدفع الفرد إلى طاعته، وخشية الله تزجره عن المضي فيما يغضبه، والرجاء من الله يمنحه القدرة على الاستمرار وعدم الملل. والنجاح في هذه الإرادات الثلاث، يؤدي إلى تحرير القلب من الخضوع لغير الله، وإلى الانسجام مع سننه وقوانينه في الوجود.

يقول الفقيه العلامة محمد بن قيم الجوزية رحمه الله: "لما كان في القلب قوتان قوة العقل والتميز وقوة الإرادة والحب، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه ويعود عليه بصلاحه وسعادته، فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق، ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل، فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه.

وينبغي أن تعرف أن هاتين القوتين لا تتعطلان في القلب، بل إن استُعملت قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استُعملت في معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استُعملت قوته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استُعملت في ضده، فالإنسان حارث همام بالطبع، كما قال النبي ﷺ: 'أصدق الأسماء: حارث وهمام' فالحارث الكاسب العامل، والهمام المريد. فإن النفس متحركة بالإرادة، وحركتها الإرادية متصورة لها، متميزة عندها، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وترده، تصور الباطل وطلبه وأرادته ولابد." [146]

---

[146]- **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس

يستخلص من هذا النص القيم النفيس للعلامة محمد بن قيم الجوزية رحمه الله، أن الإرادة أمر فطري وباعث باطني عند الإنسان، كما أنها وظيفة القلب الأساسية. وأن القلب مجبول على تقبل الأفكار الطيبة، والأعمال الصالحة وإرادتها، إذا لم تعترض سبيلها موانع وحواجز، حيث أن إرادة الإنسان يطرأ عليها الفساد عندما يألف صاحبها الأفكار الضالة والأعمال الفاسدة؛ قال نبينا ﷺ في الحديث المتفق عليه: "ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه". ثم إن الإرادة الهادفة والصحيحة تتولد من أمرين أساسيين هما: المثل الأعلى، وقلب الإنسان المميز والمنور بنور الله عز وجل. ولا سبيل إلى التحقق بهذين الأمرين ما لم نكن على وعي عميق بمفهوم الذكر وما لم نمارسه قولاً وفعلاً وتدبرًا وتمثلاً.

وقد ثبت علميًا أن الفكرة المرسَلة تولد أثرًا من شأنه أن يوقظ في بعض الأشخاص حالات روحية ونفسية منسجمة مع الطبيعة الفكرية والنفسية لمرسلها أو صاحبها. وهذا الأمر نلمسه مثلًا في العلاقة بين العالم والمتعلم، أو بين الشيخ الصوفي والمريد، أو بين محب ومحبوبه.

وإذا كانت الفكرة الصادرة عن المرسِل تؤثر في المرسَل إليه سلبًا أو إيجابًا، فإن تأثر الإنسان بأفكاره من باب أولى، حيث يكون في آن واحد مرسلاً ومتلقيًا. والإنسان يتأثر ويخضع تلقائيًا لأفكاره مدى حياته، إلا

---

الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ج1، ص24.

أنه يعجز أحيانًا عن تمثل واستلهام بعض الأفكار التي يرغب فيها، وهنا يأتي دور الإيحاء الذاتي كوسيلة ناجعة لتحقيق هذه الرغبة.

والإنسان المسلم الذي يكثر من ذكر الله سبحانه وتعالى بخشوع وطمأنينة وتأمل واستحضار لعظمة الخالق، يكون ممارسًا بطريقة تلقائية ومتصلة، لعملية الإيحاء الذاتي بكل ما تحمله هذه العملية من معاني إيجابية وعميقة. فالذاكر المردد لصيغة من صيغ الذكر المشروعة، يظل مستلهمًا كل المعاني الروحية التي تنطوي عليها تلك الصيغة، فتنساب في باطنه وكيانه، محدثة ما شاء الله من الخير والأسرار، كما تعمل على تفجير القوى الروحية والإيمانية الدفينة، مما يكون له أثر مباشر في تفعيل الإرادة ومدها بالقوة والحيوية والنشاط.

إن عكوف الذاكر مثلًا على قول: "أستغفر الله" أو "لا إله إلا الله" أو "سبحان الله"، يجعله يستوحي من هذه الكلمات معاني الاستغفار والتهليل والتسبيح، وهي بلا شك معانٍ قوية مرتبطة بالتوحيد والفطرة، تزود الذاكر بشحنات إيمانية عالية، تمكنه من تزكية نفسه والسهر على بناء شخصيته بناءً متميزًا، مما يعينه على القيام بوظيفة الرسالة والاستخلاف. وكلما حافظ المسلم على الذكر والتذكر على المنهج النبوي، ترقى في سلم السيطرة على نفسه، واكتسب القدرة على مراقبتها بطريقة تلقائية، وبالتالي ازدادت ثقته بها وبكفاءاته وقدراته.

وهكذا فإن الإيحاء الذاتي بواسطة الذكر، أفضل وأسمى أنواع الإيحاءات الذاتية، لما يثمره من فوائد في ميدان الإرادة والشخصية

وإعادة الثقة بالنفس، وتجديد الثقة بالخالق عز وجل، والارتباط بأسس الفطرة والتوحيد. كما يسهم، من خلال الذكر دائمًا، في تربية الذوق والوجدان وتنمية قوى الإرادة التي تتجسد عمليًا في محبة الله وخشيته ورجائه. لأن محبة الله تدفع المسلم إلى طاعته وحده، وخشية الله تزجره عن المضي فيما يغضب مولاه، والرجاء من الله يمنحه القدرة على الاستمرار وتحمل المصاعب والأزمات. والنجاح في هذه الإرادات الثلاث، يؤدي إلى تحرير القلب من الخضوع للأهواء النفسية والطواغيت والأصنام المادية والمعنوية.

## 4- استصحاب الذكر حالاً ومقالاً

الاستصحاب في اللغة: "طلب المصاحبة، يقال: استصحب الشيء إذا لازمه". وليس أنفع للعبد المسلم من استصحاب ذكر الله والمداومة عليه قلبًا ولسانًا، حتى يصير ذكره لمعبوده مع أنفاسه، وتلك الغاية المثلى والكرامة العظمى.

قال العلامة محمد بن القيم رحمه الله: "كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكرًا لله عز وجل، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرًا منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته، وأحكامه وأفعاله، ووعده ووعيده، ذكرًا منه له، وثناؤه عليه بآلائه، وتمجيده وحمده، وتسبيحه ذكرًا منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه، ورغبته ورهبته ذكرًا منه له، وسكوته وصمته ذكرًا منه له بقلبه، فكان ذاكرًا لله في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه، قائمًا وقاعدًا وعلى

جنبه، وفي مشيه وركوبه ومسيره، ونزوله وظعنه وإقامته"[147].

ومما يدل على لزوم استصحاب العبد المسلم للذكر حالاً ومقالاً، حثُّ الرسول ﷺ وتأكيده على ذكر الله عز وجل في جميع الأحوال، وعند القيام بكل الأعمال الدينية والدنيوية.

وقد وردت عن النبي ﷺ أدعية لدفع القلق أو الأرق، وأخرى للتخلص من الهم والحزن وأنواع المخاوف. كما وردت عنه ﷺ أدعية متعلقة بتيسير الحياة وتذليل الصعاب، ودفع الآفات، والتخلص من الدَيْن، ودفع الوساوس، وجلب الرزق، وغيرها من الأذكار والأدعية المرتبطة بالأحوال المختلفة. وقد جمع الإمام محيي الدين النووي الكثير منها في كتابه: "الأذكار من كلام سيد الأبرار".

والخلاصة أن الأذكار والدعوات في هذا الشأن، قد شملت كل أوضاع وأحوال العبد، وجميع أفعاله في حله وترحاله. فما من أمر أو فعل يخصه إلا وهو مسبوق بذكر ومختوم بآخر، أي أن الشارع حرص على أن تكون حياة العبد المسلم مسيجة بالأدعية والأذكار المباركة. وهكذا فإن العبد المؤمن لا ينفك ذاكرًا به سبحانه من خلال الأذكار والأدعية المتعلقة بأحواله المختلفة في حله وترحاله، وأدعية الصباح والمساء، أو من خلال قراءته لكتاب ربه، أو تحصيله للعلم، أو بذكره سبحانه مطلقًا.

---

[147] - **زاد المعاد فى هَدى خير العباد**؛ شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أبى بكر الزرعى الدمشقى، ابن قيم الجوزية، حقّق نصوصَه وخرّج أحاديثه وعَلّق عليه: شعيب الأرنؤوط -عبد القادر الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1996 م، ج2، ص332.

وفيما يلي، أسوق مجموعة من الأذكار النبوية الجليلة، التي ينبغي للمسلم المداومة على تلاوتها صباحًا ومساءً:

**أذكارالصباح**

قراءة آية الكرسي:"الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم". (رواهالحاكم وابن حبان).

"أصبحنا على فطرة الإسلام وكلِمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، ومِلَّةِ أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين". (رواه أحمد)

"رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبياً" (رواه أصحاب السنن).

"اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً". (رواه ابن ماجة).

"اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور". (رواه أصحاب السنن عدا النسائي).

"لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير". (رواه البزار والطبراني).

"يا حيُّ يا قيوم برحمتك أستغيثُ، أصلح لي شأني كله، ولا تَكلني إلى

نفسي طَرْفَةَ عين أبدًا". (رواه البزار).

"اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدُك، وأنا على عهدِك ووعدِك ما استطعتُ، أعوذ بك من شر ما صنعتُ، أبوءُ لَكَ بنعمتكَ عَلَيَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفرُ الذنوب إلا أنت". (رواه البخاري).

"اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرّ نفسي، ومن شرّ الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءا، أو أجره إلى مسلم". (رواه الترمذي).

"أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، أسألك خير ما في هذا اليوم، وخير ما بعده، وأعوذ بك من شر هذا اليوم، وشر ما بعده، وأعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، وأعوذ بك من عذاب النار وعذاب القبر". (رواه مسلم).

"اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، اللهم أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، واحفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك أن أغتال من تحتي" (رواه أبو داود وابن ماجة).

"بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم". (ثلاث مرات). (رواه أصحاب السنن عدا النسائي).

"سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته". (ثلاث مرات). (رواه مسلم).

"اللهم عافني في بدني، اللهم عافني في سمعي، اللهم عافني في بصري، لا إله إلا أنت، اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت". (ثلاث مرات). (رواه أبو داود)

قراءة سور: الإخلاص، والفلق، والناس. ثلاث مرّات. (رواه الترمذي).

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (التوبة:130). (سبع مرات). (رواه أبو داود).

"اللهم إني أصبحت، أُشهدك وأُشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله، وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك". (أربع مرات). (رواه أبو داود والترمذي).

"لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير". (عشر مرات). (رواه ابن حبان).

"سبحان الله وبحمده. أو: سبحان الله العظيم وبحمده". (مائة مرة أو أكثر) (رواه مسلم).

"أستغفر الله". (مائة مرة). (رواه ابن أبي شيبة).

**أذكارالمساء**

يعيد الذاكر تلاوة أذكار الصباح مع تغيير لفظة أو لفظتين في أربعة

أحاديث وهي:

"أمسينا على فطرة الإسلام وكلِمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، ومِلَّةِ أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين". (رواه أحمد).
"اللهم بك أمسينا، وبك أصبحنا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك المصير". (رواه أصحاب السنن عدا النسائي).

"أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم إني أسألك من خير ما في هذه الليلة، وخير ما بعدها، اللهم إني أعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها، اللهم إني أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، وأعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر.". (رواه مسلم).

"اللهم إني أمسيت أُشهدك، وأُشهد حملة عرشك، وملائكتك وجميع خلقك، أنك أنت الله، وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك". (رواه أبو داود والترمذي).

**فوائد الذكروفضائله**

إن فوائد الذكر لا تعد ولا تحصى، والعبد المؤمن الموحد الذاكر في رياض الجنة يرتع وينعم، ولما يرتحل إلى الآخرة. ولقد ألف العلماء في فضائل الذكر وفوائده رسائل ومؤلفات جليلة؛ منهم الإمام النووي رحمه الله في كتابه "الأذكار"، والإمام الشوكاني طيب الله ثراه في كتابه؛ "تحفة الذاكرين". ولعل كتاب؛ "الوابل الصيب من الكلم الطيب" للفقيه محمد

بن قيم الجوزية رحمه الله من أنفس وأجود ما كتب في هذا الباب، وقد ذكر رحمه الله من فوائد ذكر الله ما يزيد عن سبعين فائدة: منها:

- أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره، ويرضى الرحمن عز وجل، ويزيل الهم والغم والحزن، ويجلب للقلب الفرح والسرور والبسط.

- ومنها: أنه يقوي القلب والبدن، وينور الوجه والقلب ويجلب الرزق.

- ومنها: أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة، ويورثه المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين ومدار السعادة والنجاة.

- ومنها: أنه يورث المراقبة حتى يدخل العبد في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه، ويورثه الإنابة والقرب، فعلى قدر ذكر العبد لربه يكون قربه منه، وعلى قدر غفلته يكون بعده عنه.

- ومنها: أنه يورث ذكر الله عز وجل، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة/152)، وفي الحديث القدسي: " فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ".

- ومنها: أنه يورث حياة القلب كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الذكر للقلب كالماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء.

- ومنها: أنه يورث جلاء القلب من صداه، وكل شيء له صدأ، وصدأ القلب الغفلة والهوى، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار.

- ومنها: أنه يحط الخطايا ويذهبها، فإنه من أعظم الحسنات

والحسنات يذهبن السيئات.

قال ﷺ: "من قال في يوم وليلة سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر" (رواه البخاري ومسلم).

- ومنها أنه سبب لنزول الرحمة والسكينة كما قال النبي ﷺ: "وما اجتمع قوم في بيتٍ من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده". (رواه مسلم والترمذي).

- ومنها: أنه سبب لانشغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل، فمن عَوَّد لسانه ذكر الله صانه عن الباطل واللغو، ومن يبس لسانه عن ذكر الله تعالى ترطب بكل باطل ولغو وفحش ولا حول ولا قوة إلا بالله.

- ومنها: أنه غراس الجنة كما في حديث جابر عن النبي ﷺ قال:"من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة".

- ومنها: أن العطاء والفضل الذي ترتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال، عن أبي هريرة .رضي الله عنه .أن رسول الله ﷺ: قال:"من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه". (متفق

عليه).

- ومنها: أن دوام ذكر الرب تعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (الحشر/19).

وإذا نسى العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها فهلكت وفسدت، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه فأهمله ونسيه واشتغل عنه بغيره فإنه يفسد ولابد.

- ومنها: أن الذكر شفاء لقسوة القلوب، قال رجل للحسن: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي قال: أَذِبْهُ بالذكر، وقال مكحول: ذكر الله شفاء، وذكر الناس داء.

- ومنها: أن الذكر يوجب صلاة الله تعالى وملائكته على الذاكر، ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح، وفاز كل الفوز، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِالْمُومِنِينَ رَحِيماً﴾ (الأحزاب/41. 43).

- ومنها: أن الله عز وجل يباهي بالذاكرين ملائكته كما في حديث أبي سعيد الخدري قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال: ما

أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم استحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ. أقل عنه حديثاً مني، وإن رسول الله ﷺ. خرج على حلقة من أصحابه فقال: "ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ علينا بك، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل فأخبرني أن الله تبارك وتعالى يباهي بكم الملائكة" (رواه مسلم).

- ومنها: أن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر الله عز وجل قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ (طه/14)، أي لإقامة ذكري، وقال شيخ الإسلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ (العنكبوت/45) الصحيح أن معنى الآية أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان وأحدهما أعظم من الآخر، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

- ومنها: أن إدامته تنوب عن الطاعات وتقوم مقامها حيث لا تنوب جميع التطوعات عن ذكر الله عز وجل، وقد جاء ذلك صريحاً في حديث أبي هريرة: "أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلي والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل أموالهم يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون، فقال ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به

من بعدكم ولا أحد يكون أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ". (رواه البخاري). وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: " لأن أسبح الله تعالى تسبيحات أحب إلي من أن أنفق عددهن دنانير في سبيل الله عز وجل ".

- ومنها: أن الذكر يعطي الذاكرة قوة في قلبه وفي بدنه حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه، وقد علم النبي ﷺ ابنته فاطمة وعلياً ـ رضي الله عنهما ـ أن يسبحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثاً وثلاثين، ويحمدا ثلاثاً وثلاثين، ويكبرا ثلاثاً وثلاثين لما سألته الخادم وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة فعلمها ذلك، وقال: "إنه خير لكما من خادم" (متفق عليه)، فقيل إن من داوم على ذلك وجد قوة في يومه تغنيه عن خادم.

- ومنها: أن كثرة الذكر أمان من النفاق، فإن المنافقين قليلوا الذكر لله عز وجل، قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء/141).

قال كعب: من أكثر ذكر الله عز وجل برئ من النفاق، ولهذا والله أعلم ختم الله تعالى سورة المنافقين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المنافقون/9).

- ومنها: أن للذكر من بين الأعمال لذة لا يشبهها شيء فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذاكر والنعيم الذي يحصل لقلبه لكفى به ولهذا سميت مجالس الذكر رياض الجنة.

قال مالك بن دينار: ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله عز وجل.

- ومنها: أن دوام الذكر تكثير لشهود العبد يوم القيامة.

- ومنها: أن الذكر أفضل من الدعاء: الذكر ثناء على الله عز وجل، والدعاء سؤال العبد حاجته، فأين هذا من هذا، والذكر كذلك يجعل الدعاء مستجاباً، فالدعاء الذي تقدمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد"[148].

رحم الله العلامة الفقيه محمد بن قيم الجوزية، الذي أتحفنا بهذه اللآلئ والذرر المتعلقة بفضائل الذكر وفوائده، والتي تنفع الذاكر في دنياه وأخراه.

والخلاصة أن ذكر الله يجعل العبد في مأمن من كيد الشيطان، ونزغاته ووساوسه. كما يُذهِب عن النفس غمومها وأحزانها. وأن الذكر يعين الذاكر على مجاهدة نفسه، ومراقبتها، ومحاسبتها، ويحول بينها وبين غفلتها. ثم إن الذكر يدني العبد من ربه حتى كأنه جليسه؛ وهذا من المقامات الرفيعة الدالة على مدى المحبة القائمة بين الحق سبحانه

148- **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث – القاهرة، ط3، 1999م، ص 41 وما بعدها.

المذكور وعبده الذاكر، مصداقا لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (المائدة 56). كما أن الذكر يجلب لصاحبه الحسنات، ويحط عنه السيئات لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ (هود 114).

هذا وإن الذكر الدائم له تأثير عجيب في أمراض القلب من: رياء، وكبر، وغرور، وحسد...، بحيث يعمل تدريجيا، بإذن الله، على علاجها. وحسب الذاكر منزلة ورفعة، كونه بالذكر اتصل ونال شرف القرب من مولاه؛ إذ يناجيه ما دام مستغرقا في ذكره. والذاكرون في جنتهم يتنعمون ويتقلبون ولما تطأ أقدامهم جنة النعيم. فلا تزال قلوبهم معلقة بذكر معبودهم ومحبوبهم، ليل نهار، وفي كل أحوالهم، مع اشتياق إلى لقائه، والنظر إلى وجهه الكريم سبحانه.

ثم إن العبد الذاكر خلال تهليله، أي؛ قوله: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، أو تسبيحه بقوله: سبحان الله، سبحان الله،...، أو استغفاره بقوله: أستغفر الله، أستغفر الله،...، أو حمدلته بقوله: الحمد لله، الحمد لله،...، أو حوقلته بقوله: لا حول ولا قوة إلا بالله...، يستحضر في قلبه من معاني التنزيه والتسبيح والتحميد والتعظيم، ما به تتوطد وترسخ في قلبه أسس العبودية. كما يستحضر في باطنه، باستغفاره وحوقلته، معاني التوبة والافتقار إلى الله عز وجل، وأنه، العبد الضعيف، لا حول له في دفع ضر ولا جلب خير إلا بمعونته سبحانه.

## الذكر عبادة توقيفية

إن ذكر الله عز وجل عبادة توقيفية مقيدة بالشرع ومسيجة بالاتباع، خلافا لما سنه وشرعه بعض الصوفية من الأذكار البدعية؛ كذكر الله بالإسم المفرد: الله، الله، الله،... أو بلفظ ضمير الغائب: هو، هو، هو،... فلم يثبت عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة والتابعين أنهم كانوا يذكرون الله بتلك الطريقة. وفي الموطأ والصحيحين أن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه قال: "أفضل ما قلت أنا والنبيئون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير".

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله: "وإنما الغرض هنا أن الشرع لم يستحب من الذكر إلا ما كان كلامًا تامًّا مفيدًا، مثل: "لا إله إلا الله"، ومثل: "الله أكبر"، ومثل: "سبحان الله، والحمد لله"، ومثل: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، ومثل: {تبارك اسم ربك}، {تبارك الذي بيده الملك}، {سبح لله ما في السماوات والأرض}، {تبارك الذي نزل الفرقان}، فأما "الاسم المفرد" مظهرًا، مثل: "الله" "الله"، أو "مضمرا"، مثل: "هو" "هو"، فهذا ليس بمشروع في كتاب، ولا سنة. ولا هو مأثور أيضًا عن أحد من سلف الأمة، ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم، وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين"[149].

إن الشارع الحكيم نص على أن صيغة الذكر ينبغي أن تكون مفيدة

[149]- فتاوى ابن تيمية، المرجع السابق، ج10، ص 556.

وذات معنى؛ فالذاكر عندما يردد "لا إله إلا الله"، فإنه ينتقل من معنى النفي إلى معنى الإثبات، أي؛ ينفي صفة الألوهية عما سوى الله، ثم يثبتها لله وحده، وهو بذلك يعمل على تأصيل وتجذير التوحيد في قلبه، وينفي عنه كل الشبه والوساوس والضلالات: وهكذا تتأصل شجرة التوحيد في صدره، ثم تمتد فروعها في جوارحه وأقواله وأفعاله، فيغدو كيانه مشرقا ومتلألئا بنور التوحيد.

## المصادروالمراجع

**القرآن الكريم** برواية ورش عن نافع

**إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**؛ مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990/1410.

**إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

**بدائع الفوائد**؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت.

**البستان في إعراب مشكلات القرآن** - من الأنبياء إلى آخره (وهو كل ما عُثر عليه من الكتاب)؛ أحمد بن أبي بكر بن عمر الجبلي المعروف بابن الأحنف اليمني (ت 717 هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور أحمد محمد عبد الرحمن الجندي، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولى، 1439 هـ - 2018).

**الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**؛ عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، أبو محمد، زكي الدين المنذري (ت 656 هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1417.

**تفسيرالقرآن العظيم**؛ ابن كثيرعماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن

عمر بن كثير الدمشقي (ت 774 هج)، وضع حواشيه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.

**التفسير الميسر**؛ نخبة من أساتذة التفسير، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – السعودية الطبعة: الثانية، مزيدة ومنقحة، 1430هـ - 2009 م.، ج1، ص179.

**تفسير القرآن الكريم، ابن القيم**؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط1، 1410هـ.

**تفسير القرآن الحكيم؛ تفسير المنار**، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.

**التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، طنطاوي؛ محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط1، 1998 م.

**تفسير المراغي**؛ أحمد بن مصطفى المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، 1365هـ - 1946 م.

**تفسير الشعراوي** – الخواطر، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، 1997.

**التقوى تعريفها وفضلها ومحذوراتها وقصص من أحوالها**، عمر الأشقر، الأردن: دار النفائس للنشر والتوزيع، 2012.

**التعريفات**، الجرجاني؛ علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت 816)، التحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ-1983م.

**تهذيب الأسماء واللغات**؛ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

**تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**؛ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت 1376هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1420هـ-2000 م

**الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، 1384 هـ- 1964 م

**جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري**؛ أبو جعفر، محمد بن

جرير الطبري (ت 310)، دار التربية والتراث - مكة المكرمة، د.ت.

**جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم:** زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب (736- 795 )، المحقق: شعيب الأرناؤوط إبراهيم باجس،مؤسسة الرسالة – بيروت،الطبعة: السابعة، 1417 هـ - 1997 م.

**جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام:** محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار العروبة – الكويت الطبعة: الثانية، 1407-1987.

**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، عام النشر: 1394 هـ - 1974 م.

**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني:** أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415هـ - 1994م.

**رياض الصالحين:** أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المحقق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة، 1419 هـ/1998 م.

**زاد المعاد في هَدي خير العباد**؛ شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، ابن قيم الجوزية، حقّق نصوصَه وخرّج أحاديثه وعَلّق عليه: شعيب الأرنؤوط -عبد القادر الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1996 م.

**زاد المسير في علم التفسير**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت 597هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط1، 1422 هـ.

**سنن ابن ماجه، ابن ماجة**؛ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت 273 )،

تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

**سنن أبي داود**، أبو داود؛ سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت275)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، عدد الأجزاء: 4.

**سنن الترمذي**، الترمذي؛ محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت 279)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصرالطبعة: الثانية، 1495 هـ - 1975 م.

**سير أعلام النبلاء**، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: حسين أسد، شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مأمون الصاغرجي، علي أبو زيد، كامل الخراط صالح السمر، أكرم البوشي، إبراهيم بشار معروف محيي هلال السرحان، بإشراف: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الثالثة، 1405 هـ - 1985 م.

**شفاء العليل في مسائل القضاء والقدروالحكمة والتعليل**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة: 1398هـ1978.

**صحيح البخاري**، البخاري؛ أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة: السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، 1311 هـ، بأمر السلطان عبد الحميد الثاني.

**صحيح ابن حبان**: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البُستي (ت 354)، المحقق: محمد علي سونمز، خالص آي دمير، دار ابن حزم – بيروت، ط1، 1433هج- 2012م.

**صحيح مسلم**، مسلم؛ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ثم صورته دار إحياء التراث العربي ببيروت، وغيرها، عام النشر: 1374 هـ - 1955 م.

**صفة الصفوة**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المحقق: أحمد بن علي دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: 1421هـ/2000م.

**فتح القدير**؛ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - 1414 هـ.

**الفوائد**، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط2، 1393هج.

**في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، 1417 هج-1996م، ط. 25، (انظر نسختي)

**لسان العرب**، ابن منظور؛ محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت 711)، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر – بيروت، ط3، 1414هج.

**لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**؛ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004 م.

**مجموع الفتاوى**؛ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله وساعده: ابنه محمد وفقه الله، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة السعودية، عام النشر: 1425 هـ - 2004 م.

**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين**، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط3. 1416 هـ - 1996م.

**مشارق الأنوار على صحاح الآثار**؛ القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي المالكي، الناشر: المطبعة المولوية، فاس – المغرب1333هـ.

**المفردات في غريب القرآن**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت 502هـ) تحقيق؛ صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط1، 1412هـ.

**المعجم الأوسط**؛ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المحقق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد - أبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة،1410 هـ - 1995 م.

**المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1392.

**معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي؛** محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت 510)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت ط1، 1420.

**المعجم الكبير،** الطبراني؛ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت 360)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط2، د.ت.

**مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها،** د. ماجد عرسان الكيلاني، مؤسسة الريان، بيروت، 1419-1998.

**الموافقات،** الشاطبي؛ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت 790)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن عفان، ط1، 1417هج-1997م.

**نور الهدى وظلمات الضلال في ضوء الكتاب والسنة،** سعيد بن وهف القحطاني، الرياض: مطبعة سفير.

**الوابل الصيب من الكلم الطيب،** ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث – القاهرة، ط3، 1999م.

## موضوعات الكتاب

وشفاء الصدور من أدوائها وجواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح، حي على الفلاح، نادى منادي الإيمان على رأس الصراط المستقيم ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم"[112].

ثم إن تدبر الحقائق العلوية للخطاب القرآني، واستشعار الحق واليقين الكامنين فيه، يستلزم تجريد النفس من خواطرها ووساوسها، والإنصات إلى لغة معانيه بروح سامية، وقلب مفعم بالصدق والإخلاص، متأهب لتلقي النفحات والإشراقات الربانية. وأهم الأسباب والدواعي المساعدة على ذلك ما يلي:

1- **حضور القلب أثناء التلاوة**، وهو أس هذا البناء وشرطه اللازم، إذ كيف يتصور جني ثمار التلاوة والقلب ساه أو غافل. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (سورة ق 37). ولكي يتم للعبد حضور القلب أثناء التلاوة، ينبغي له أن يجمع همته ويركزها في القصد المطلوب. وهذا أمر منطقي ومجرب؛ فإن الذي عقد العزم على إتيان أمر ما، أو القيام بمهمة معينة، واستفرغ لذلك وسعه، وبذل فيه جهده، لا بد أن يحصل له من التركيز فيما هو مشغول به، والانصراف عن كل ما يشوش عليه عمله. وعلى قدر محبته وتعظيمه لذلك الأمر ماديا كان أو معنويا، يتحرر باطنه من الوساوس والأفكار

---

[112]- **مدارج السالكين**، المرجع السابق، ج1، ص 27.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾ (التحريم 8). وقال سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً اَيُّهَ ٱلْمُومِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور 31). وقال الحق سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً﴾ (هود 3)، إلى غيرها من الآيات الواردة في التوبة. والتوبة هي رجوع العبد الى الله، كرجوع العبد الآبق الى سيده، وتتولد عن ألم الندم والحسرة على ما اقترفه من الذنوب والمعاصي.

قال العلامه محمد بن قيم الجوزية رحمه الله:

"ومنزل التوبة أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال الله تعالى وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي، إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم"[107].

ولما كان المسلم لا يسلم من الوقوع في المعاصي، بسبب الغفلة أو التقصير، وغير ذلك من الأسباب، لزمه الاستغفار في معظم أوقاته،

---

[107]- **مدارج السالكين**، المرجع السابق، ج 1، ص196.

نفسي. فليس بعد القرآن وأخبرنا وحدثنا، إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوفين، وقياس المتفلسفين. ومن فارق الدليل ضل سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة."[102]

والآيات القرآنية الدالة على المعنى الشمولي لتزكية النفس، وعلى ربط العبادة بالمعاملة كثيرة؛ تشمل مجالات وموضوعات مختلفة، منها؛ آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآيات صلة الأرحام، وآيات الإحسان إلى الأقارب والجيران والفقراء والمساكين، وآيات العدل والإنصاف، وآيات حسن الخلق.

قال الحق سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران 110).

جاء في التفسير الوسيط:

"والخطاب في هذه الآية الكريمة بقوله تبارك وتعالى كُنْتُمْ للمؤمنين الذين عاصروا النبي ﷺ ولمن أتى بعدهم واتبع تعاليم الإسلام إلى يوم الدين .ولذا قال ابن كثير : والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة. كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم، كما قال - سبحانه - في الآية الأخرى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

---

[102]- **مدارج السالكين**، المرجع السابق، ج2، ص439

السلف الصالح، فيقول رحمه الله: "فصاحب الرياضات، والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات والخلوات: هيهات، هيهات، إنما يوقعه ذلك في الآفات والشبهات، والضلالات. فإن تزكية النفوس مُسَلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاَّهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليماً وبياناً وإرشاداً، لا خلقا وإلهاما. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة 2). وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 151-152). وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل؛ فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم، والله المستعان."[95]

ثم إن أسلوب التلقي الذي ينتهجه المريد مع شيخه الطرقي، لا يخلو من عيوب معرفية وتربوية وأخطاء تعبدية وشرعية، ذلك أن هذه العلاقة تجعل المريد محصورا في دائرة مغلقة، بحيث يكون الشيخ بمثابة النواة المركزية، والمريدون عبارة عن إلكترونات تحوم حولها. وهكذا فإن

---

[95]- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ابن القيم؛ المرجع السابق، ج2، ص299.

قلب بشر؛ قال الغني الحميد: ﴿وإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً (22) ﴾ (الإنسان 20-21-22). وقال العلي العظيم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الدخان 48 - 54). ثم إن الله سبحانه وتعالى قد أكرم أهل الجنة بكرامة النظر إلى وجهه الكريم، وهذا أعظم عطاء وتشريف وحفاوة، وله تشوَّف المتقون وسعوا إليه بالعبادة والطاعة والإكثار من الأعمال الصالحة، جعلني الله منهم والمسلمين أجمعين.

**سبل تحقيق التقوى**

إن التقوى أمر شديد وثقيل على النفس الأمارة والغافلة، لما فيها من تقييد لها، ومنعها من أن تهيم على وجهها منجذبة إلى رغباتها وأهوائها. ويصعب على المسلم الظفر بلباس التقوى، إذا لم ينازل نفسه منازلة الفارس؛ مستعينا بوسائل وطرق تربوية وإيمانية فعالة، ومسترشدا بالمنهج النبوي فيما يخص تربية النفس وتزكيتها، وهذه بعض أهم سبل ووسائل تحقيق التقوى مستخلصة من الكتاب والسنة: